كعب الخير

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتــــاب: كعب الخير

تـأليــــــف: محمد قنديل

القـطـــــع: 14*20

مراجعة لغوية: رنا أبو الغيط

سنـة النشـر: 2025

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

النــاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 23673 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 658 - 6

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-658-6

9 789778 446586

كعب الخير

رواية

محمد قنديل

"

مقدمة

الأيام في حياتي حُبلى، لا يُصيبها عقم، تُلقحها الأحداث بغير انقطاع ولا وهن."

لفتت هذه العبارة العبقرية انتباهي عند قراءتي للصفحات الأولى من الرواية، وشممت فيها عبق كتابات الدكتور يوسف إدريس والأستاذ عبد المنعم الصاوي عندما كتبا عن القرية المصرية.

لخصت هذه العبارة المختصرة روح الرواية التي غطت حياة ثلاثة أجيال في قرية الشيخين، التي لا تتوقف فيها الأحداث عن تلقيح الأيام.

عرض الكاتب بمهارة التناقضات الواضحة في الشخصيات والقيم، وعبر كيف تجتمع في عائلة أو أسرة، بل وشخص واحد، مفاهيم وأخلاقيات متعارضة: الخير والشر، الحب والحقد، الفجر والتدين، اللين والقسوة، الضحك والبكاء، والعدل والظلم.

وضّح لنا أمثلة واضحة عن دورات الحياة، وكيف أن الحق لا يضيع، وأنه لا يصح إلا الصحيح.

نجح الكاتب في سرد حكاياته على لسان امرأة، وتمكن من أن يفكر كامرأة، ويحكي كامرأة، ويحب كامرأة، ويكيد كامرأة.

رواية تلهث وأنت تقرأها لتشعب أحداثها وكثرة تفاصيلها وتركيب شخصياتها. ربما تحتاج لأن تقرأها مرتين لتعيش مشاعر أبطالها، وتستوعب مسار حياة كل منهم، وتتعلم وتتعظ من تجاربهم.

هذه الرواية وجبة دسمة، فأعطها وقتاً لتستمتع بنكهتها، ولتهضمها ببطء، فيستفيد منها عقلك.

وكما قال الكاتب الواعد محمد قنديل ضمن الرواية: "سار بنو آدم في الأرض يصنعون الحكايات، المضحك منها والمبكي."

أقول له: لقد سرت على نهجهم، وصنعت حكاية بديعة، مضحكة مبكية، ستُمتع القراء.

د. إبراهيم شلبي

احتفظت أمي في ذاكرتها بكثير من الذكريات، وكانت وسيلتها للحفاظ على هذه الذكريات هي تكرارها في كل فرصة سانحة! ولأنها أمي، لم أملَّ يومًا من سماعها، بذات الشغف نفسه.

(مسالم طائع)

أول شيء تفتّح عليه وعيي في الدنيا هو موت جمال عبد الناصر، كنت بنت السادسة على ما أذكر، والذكرى الأولى لكل طفل هي شبح يُلقي بظلاله على نبض الذاكرة. وجدتني إلى جوار رجل يحمل الكلوب مُضيئًا الطريق لصوت صراخ النساء وبكاء الرجال، لعله يصل إلى السماء، عسى أن يتغير الحال، ويرد الله الروح إلى هؤلاء الناس المتعلقة أرواحهم بالزعيم!

كنت طفلة صغيرة، لم أفهم ما يدور من حولي، هذه صورة جمال عبد الناصر بالأبيض والأسود وسط إطار متوسط الحجم، يحملها رجل في مطلع الأربعين، وإن كانت ملامحه المنحوتة بدقة تنم عن عشر سنوات فوق الأربعين، ربما قلة النور توهم الكبير والصغير بحجمٍ للبشر فوق قدرهم، وعلى كل حال يغفر لي صغر سني تبيان الحال وما قد تؤول إليه مجريات الأحداث.

خرج الناس تباعًا من مخادعهم - حين وصل الخبر من مصر إلى القرية - يجذبهم عويل النساء وأصواتهن الرنانة، المتشحة بالسواد فوق جلابيبهن الفلاحي التي تحمل أثر الفقر المغموس بالأمل، وهتافات الرجال المخنوقة بالصدمة والرغبة في الإنكار. كنت على صغر إدراكي أهتف معهم وسط حالة من الرعب الشامل والدهشة المرتقبة لقيام يوم القيامة وانتهاء الدنيا، وتساءلت: هل تنتهي الدنيا سريعًا هكذا؟ لم أكن أتخيل أن نهاية الدنيا مرعبة إلى هذا الحد!

اندفع الجميع تسوقهم الهتافات والصويت بلا بوصلة محددة، تموج بهم الصدمة دونما قصد، الرجال وسط النساء، ومن بينهم أطفال القرية، يخفي ظلام الليل رائحة الفقر وتخنقه رطوبة سبتمبر. لم تكن الكهرباء قد دخلت إلى قريتنا بعد، تحول الموقف في دقائق إلى هتافات أصابت الحناجر بالذبحة، ونحتت الدموع أنهارًا فوق الخدود الصلبة المتيبسة، وهتف الجميع، والصوت في مسامعي الآن كأنه بالأمس القريب:

"يا خالد روح قول لأبوك، ١٠٠ مليون بيودعوك"

"يا أمريكا ما تفرحيش، عبد الناصر غيره ما فيش"

"مكتوب على قلوبنا، عبد الناصر حبيبنا"

"الله حي.. الله حي.. عبد الناصر دايمًا حي"

"ما تفرحش يا استعمار.. عبد الناصر فات أحرار"

"ما تصدقش ما تعيطش، عبد الناصر لسه مامتش"

"لا إله إلا الله.. عبد الناصر حبيب الله"

جمال عبد الناصر مات!

في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ رحل جمال عبد الناصر، خرج الملايين من المصريين، تكتظ بهم الشوارع والميادين والأزقة في وداعه، وهتف له الملايين في جميع الوطن العربي. رحل مبكرًا عن عمر يناهز ٥٢ عامًا، بعدما عاش نكبة مريرة عقب عدوان ١٩٦٧، عاش بعدها مهمومًا يحاول البناء من جديد من أجل استعادة الأرض والانتصار على العدو، لكن القدر لم يمهله!

قيل إن القرى المجاورة سارت بالنعوش الفارغة، تحملها الهتافات وتشيعها النساء بصوت حناجر المصيبة وضرب الخدود وشق الجيوب، كل قرية تحمل نعشًا فارغًا فوق أعناق الرجال. عبد الناصر عاش ومات في كل قرية وبيت، كأن الواحدة منهن فقدت زوجًا أو أخًا، ولعله ابنًا وحبيبًا. مات الحلم، مات الأمل، مات مسمومًا. الحقيقة أن الناس كانت تحب عبد الناصر!

خيّم الحزن على القرية أيامًا طويلة، وانعزل الكثيرون من الرجال في البيوت من هول الصدمة، وظن الناس أن الدنيا انتهت، كانت نكسة فوق النكسة، كي لا تأسوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم!

هذا أول عهدي بالدنيا، والأيام في حياتي حبلى لا يصيبها عقم، تُلقّحها الأحداث بغير انقطاع ولا وهن.

تسلل الفرح وسط ظلام يشوبه الجهل، مرات متباعدة إلى قلوبنا، أولها كان زواج خديجة!

حكت لي خديجة بعد سنوات مرت من عمرنا، فلم يكن وعيي قد تفتّح بعد، وهي مبتسمة ابتسامتها التي لا تفارق وجهها، كيف تزوجت وهي طفلة، ولم تكن ساخرة أو ساخطة أبدًا.

قالت: سحبتني أمي يرافقها أبي على مضض، وأنا حافية القدمين، نحو البندر - المركز الذي تنتسب إليه قريتنا -، لا أعلم أين المقصد تحديدًا، رغم فرحتي كسائر الأطفال حين الذهاب للمدينة، ولم يكن هناك ما يدعو للفرحة، اللهم إلا الخروج من حدود عالم القرية!

ألبستني أمي جلبابًا نظيفًا، ومشطت شعري، ووضعت في كل ضفيرة شريطًا ملونًا من القماش لتمام الزينة، ولم أعلم السبب في عدم شراء حذاء، كان معظم الناس يسيرون حفاة!

لم يعرف الناس من الأسماء الكثير، فكانت أمي هي خديجة الكبرى، وأنا خديجة الصغرى، لم يكن الناس منشغلين في بذل أي مجهود يُذكر في تسمية أبنائهم، ولم تنتشر بعد وسائل تنظيم ومنع الحمل.

زاد العجب في نفسي حين دخلنا ما يشبه مستشفى أو وحدة صحية، وبدأ الهمس تجاهي، وقع قلبي بين قدمي، هذه رائحة عملية طهارة

- ختان - قلت لنفسي: هيطاهروني مرتين؟!

لكن سرعان ما خيب الله ظني، له الحمد على هذه الخيبة.

دخلت برفقة أمي إلى غرفة الطبيب، وتبعنا أبي، لكنه آثر الوقوف في زاوية الغرفة ذات الباب الذي لا يُغلق، ولم يقتحم الموقف، إذ كان

رقيق القلب، مرهف الإحساس، على عكس معظم الناس الذين عرفتهم.

بدأ الطبيب يتفحص جسدي بشكل مرعب، وأطبق الصمت على فمي، لم أكن أجرؤ حتى على مجرد السؤال، فقط نظرت في عيني أمي بلهفة المستغيث، فأومأت برأسها أن الأمر طبيعي.

التفت الطبيب إلى أمي، ثم تحدث من تحت نظارته الذهبية بصوت شديد الخنف، خيل لي أن لسانه في أنفه:

. لا لا، دي مالهاش بزاز خالص، مش هينفع، لسه صغيرة!

قالت أمي بصوت رجاء متصنع:

. الله يبارك لك يا بيه، اثبتها ١٦، دا دفعوا المهر واتفقنا على كل حاجة!

. مش هينفع يا ست، البنت مالهاش بزاز خالص، هاكتبها ١٢ سنة!

فهمت لاحقًا أنها عملية تسنين تسبق الزواج، كان إثبات المولود وإصدار شهادة ميلاد هي آخر اهتمامات الناس، بالأخص للبنات.

رغم كل شيء تزوجت خديجة من محمد الخفيف، الابن البكري لخفيف شملان، فلاح قصير القامة، أصاب العشرين ربيعًا منذ أسابيع معدودة، كان ذلك أول نسب بين عائلتنا وعائلة شملان. منذ ذلك اليوم حملت خديجة لقب زوجها، لم يعرف أحد خديجة مسالم أو خديجة الصغرى، الجميع يناديها خديجة الخفيفة حتى

آخر حياتها، رغم ثقل وزنها الهائل مع مرور الزمن، خفيفة الروح ثقيلة الحنان. خلق الله الخفيفة فقط لتكون أمًا، لم تعرف من الدنيا غير الحمل والرضاعة وإطعام الصغار وتربية الأبناء، ولم يكن بيت آل شملان يبتعد عن بيتنا غير بضعة أمتار.

تم حشو صدرية خديجة الصغرى بالقطن في حيلة معروفة لتكبير حجم الثدي، لخداع أهل العريس.

اعتقدت الخفيفة أن المرأة تحمل وتنجب بمجرد "أخدان الوش" . فض بكارتها . فلم تعد عذراء بعد، وها هي تتحول إلى ماكينة لصناعة الأطفال بجميع الأنواع والأحجام. ضحكت ضحكة نضج خجولة وقالت وهي تميل على كتفي في مودة:

. ما كانش في تلفزيونات ولا رداوي، وما كنتش أعرف حاجة، كنت طفلة صغيرة.

أنا الأخرى تزوجت بنت الخامسة عشر، لكني وقعت في الحب!

لم يمر أكثر من ثلاثة أعوام حتى خيبت خديجة ظن دكتور التسنين، وانطلقت في مباشرة الحمل والولادة!

كانت حنونة، لذلك سرعان ما أصبحت أمًا. أنجبت سعدية، وتوفاها الله قبل تمام العشرين ولم تتزوج، ثم أنجبت محمد، تبعته زهراء وعبد الماجد وعزيزة وابتهال، ثم شريف وأحمد ومحمود، وكان علوي المتمم لعشرة من الأبناء حملوا لقب خفيف شملان!

قالت بابتسامة تحمل معنى:

.لم يكن هناك وسائل لمنع الحمل!

وسار بنو آدم في الأرض يصنعون الحكايات، المضحك منها والمبكي.

لأسباب غير معلومة، حملت زينات لقب الصغرى، بعدما تخلت عنه خديجة.

تزوج ثلاثتنا صغارًا، خديجة، ثم زينات الصغرى، والأخيرة كانت أنا، وتخلل بيننا زواج الذكور، محمد، عليوة، وحمادة.

كان التعليم شبه محرم للإناث، لم تعرف واحدة منا أي شكل من أشكال الدراسة، رغم شغفي الشديد بذلك، وكان الجميع يرونني فريدة.

كنا نظن أن الماضي لن يتشبث بالذاكرة بالقدر الذي يستطيع معه الجيل الثالث الخلاص نحو المستقبل، بينما هي خدعة من خدع الزمن، وقعت في فخها خديجة الخفيفة وزينات الصغرى، بعدما وقع بينهم من نسب كان هدفه تقريب مسافة الود والحب بين الأختين.

تزوج محمد خفيف شملان ابن خديجة الخفيفة، من نعيمة عربي بنت زينات الصغرى.

نتج عن هذا الزواج إنجاب عبد الرحمن، الذي كان ضحية عدم التوافق بين الأبوين. نعيمة لم تعتد على حياة القرى وبيت العائلة،

نشأت وترعرعت في المدينة، ولم يكن محمد الخفيف سوى رجل قروي بسيط غير قادر على احتوائها. وانحاز كل طرف لابنه، وانتهى الأمر بالطلاق والانفصال، وتزوج كل منهما مرة أخرى شخصًا من نفس بيئته، ودفعت الأختان خديجة وزينات الثمن باهظًا من الخصام والهجر غير المرغوب فيه حتى وفاتهما.

حتى نهاية عمره تحمل محمد مسالم طائع المسؤولية، كان رجلاً لا يجود الزمان بمثله، جمع بين الشدة واللين، غلفته الحكمة بحكم خبرته وتجاربه إلا من بعض الحماقات، حتى أنه حمل لقب الأب، الجميع يعرفه "أبو مسالم"، كما جرت العادة في القرية.

صقلته التجربة، ودفع من عمره تسع سنوات في الجيش، شارك في حرب الاستنزاف حتى نصر أكتوبر، كانت أمي تبكي صباحًا ومساء خشية أن تفقده، ولم أكن أدرك بشكل محدد سبب البكاء، فتطوعت أن أحكي للعيال أمام دارنا عن سبب بكائها دون سؤال منهم، منذ هذا الوقت وجدت للحكي أثرًا مداويًا لجراح نفسي.

.عارفين يا عيال، أمي بتبكي ليه؟ علشان خدوا أخويا محمد المركز!

كان كل شيء إجباريًا، الزواج والطلاق، الحرب والسلام، النوم واليقظة، حتى الضحك والبكاء كانا قسراً، منذ أن تسللت لغته بين أضلع عائلة طائع وعائلة مصباح!

يُختطف الشاب صغيرًا من دفء البيوت القديمة، إلى اتساع الصحاري القاحلة ليواجه المجهول.

يقول محمد مسالم:

على مشارف مدينة المنصورة دكت إسرائيل بعض القرى وقواعد الجيش، وكانت النكسة بعد نكسة دولة عبد الناصر أعمق في قلوب الناس، وخيمت رائحة الفقر والانكسار على المؤسسة. كنا نتسول

الطعام من بيوت الأهالي ونحن نرتدي ملابس الجيش. أبداً لم يتخلَّ هذا الوطن عن أبنائه، فقد كانت الحقيقة عارية تماماً للناس بعد الهزيمة، وفرّق الجميع بين المذنب والضحية. ورغم إيثار الجميع عدم لوم أو محاسبة أحد، خلطت قوة الصدمة المشاعر بالشجن والدموع، وتعامى الناس عن إبصار الحقيقة، ولم يبقَ لهذا الوطن غير أبناء الفلاحين والمعدمين من ملح الأرض، أو ما تبقى منهم، أولئك الذين لم تلتهمهم الرمال وخيبة الآمال.

تسولنا الطعام لنسد فجوة الجوع والهزيمة.

كنا تحت ستار الليل نقوم بتوزيع الأدوار لننال الطعام، هذا يحضر الجبن من أحد البيوت، وهذا يستجدي الخبز، تسول المجندون من أهلهم الطعام بالزي الميري.

كان لأبي ـ رحمة الله عليه ـ دعوة مستجابة، فتح الله باب استجابة الدعاء له على مصراعيه حين دعا:

ـ يا رب، يا محمد، يا ابني، أعيش سنة واحدة أشوفك وأشبع منك بعد ما تطلع من الجيش.

وقد كان!

رغم كل محاولات خديجة الكبرى إثناءه عن هذا الدعاء، الذي ردده عقب كل صلاة، وكل حجر معسل.

على قلة النور المنبعث من لمبات الجاز، لم تكن القرية تسلم من أصوات الرعب، ويخرج الجميع استجابةً لصوت سعفان المحذر من الغارات:

.طفي النور يا ولية، طفي النور يا جدع... غارة... طفي النور.

كان دين الناس وديدنهم في القرية هو جمع المال وشراء الأراضي، لذلك لم يشفع لمحمد مسالم تفوقه ونبوغه في الدراسة حسب شهادة الجميع، وترك المدرسة قبل أن يحصل على الشهادة الابتدائية، ابتغاء مد يد العون مع أبيه في فلاحة الأرض، كان هذا أنفع من التعلم والدراسة حسب رؤية مجتمع القرية وقتئذ!

حتى نهاية عمره كان فطنًا شديد الحذر، صاحب خط جميل في الكتابة، ذا رؤية سياسية بعيدة المدى، وذاكرة حديدية طاف بها الكثير من ربوع مصر خلال تجربة التسع سنوات، وعندما حان أجله، مات واقفًا كنخلة شامخة.

كما تزوجت أمي . خديجة الكبرى . من ابن عمها أبي . مسالم طائع .، تزوج أخي . محمد مسالم طائع . هو الآخر من ابنة عمه . سعدية عبد الهادي طائع.

مات أبو سعدية قبل أن يبلغ الخمسين، بسبب سرطان في الدم، حزنت عليه القرية أشد الحزن، وأثار مرضه النادر حينها الدهشة والخوف في نفوس الفلاحين، لم يكن له من الأبناء غير سعدية وهادية!

تزوج محمد سعدية في أواخر عهد عبد الناصر وهو ملتحق بالجيش، مما جعل هذا سببًا في تأخرهما في الإنجاب حتى بعد ثمان سنوات من الزواج، حين أنهى التحاقه بالجيش وحصل على وظيفة

مدنية في الهيئة التابعة لوزارة الطرق والنقل، مكافأة من الدولة لكل من شارك في العبور من النكسة نحو النصر.

أنجبا واكد ووالي، واكد صار مهندسًا مرموقًا، ووالي عمل موظفًا في هيئة السكة الحديد، وبدون ميول مسبقة أو مقدمات، انضم كلاهما لجماعة الإخوان المسلمين.

أذكر حين تزوجت، جاءت سعدية تحمل عشاء العروسين لنا، بعدها رقدت في فراش الموت قرابة الشهرين، قيل إنها كانت تعاني حمى التيفود، لكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لموتها.

ما فائدة الندم حين تخلق الغيرة قسوة قاتلة.

أعرض محمد لوقت طويل عن فكرة الزواج مرة أخرى، بسبب سيطرة الشعور بالذنب عليه تجاه أبنائه الذين ذاقوا مرارة اليتم وهم دون سن الخامسة، حتى أن القدر والإهمال لم يترك لهم صورة فوتوغرافية للأم يتذكرون بها ملامحها الوديعة الجميلة، ولم تسعفهم طفولتهم على نحت صورتها في مخيلتهم.

حقًا، إن من الحب ما قتل، كانت جدتك خديجة الكبرى شديدة جدًا في التعامل مع زوجات أبنائها، وكان الرجال قساة، وضرب الزوجات كان عرفًا متبعًا، لكن محمد لم يفعل ذلك إلا بدافع الغيرة، حين شعر أن حماد طائع يشاغل سعدية، وكان من أبناء عمومتهم وجارهم في الأرض والساقية، فمنعها من الذهاب للأرض وعدم التحدث مع حماد مطلقًا، حتى إذا ما دفعها الدأب والمثابرة

والشطارة في أمور البيت والأرض على مخالفة القاعدة مرة، لم يشفع لها ذلك كله من نيل عقوبة الضرب المبرح، الذي كان من بينه وكزة قوية في الكلى اليمنى، لم تشفَ بعدها، وعلم الجميع أن موتها كان أثر تلك الوكزة، لكنهم أنكروا ذلك في غيبوبة العقل الجمعي، وسيطرت قسوة الحماوات والأزواج ومجتمع الغيرة والشك على الموقف.

ماتت في هدوء شديد، تركت نهايتها أثرًا كبيرًا في محيطها، ولم تغب سيرتها أبدًا في كل مسامرة أو عرس أو مأتم. رحمة الله عليها، كنا نحبها وتحبنا.

بعد إلحاح متواصل من أمه، تزوج محمد سنية بعد أربع سنوات تقريبًا من موت سعدية، وقد عوضته عن القسوة وألم الندم. كانت من عائلة وبيت ذي أصل طيب في القرية، ومشهود لها بالهدوء، إلا أنها كانت مرحة شديدة المزاح إلى أقصى حد، مما جعلها لا تهاب أحدًا مهما علا شأنه، تمزح في الجد والهلس، في اللين والشدة، فغلفها ذلك بغلاف وحصن من نوع معين. ويشهد الله أنها كانت تعشق محمد عشقًا لا نهاية له، فضلًا عن أنها لم تقل في المثابرة والعمل عن زوجته الأولى، وساعدها مزاحها الساخر من كل شيء على تجاوز الكثير من تقلبات الأحداث في حياتها.

كان حظه وافرًا في النسوة، الستات رزق وانت وحظك!

من كانت تموت زوجته، لا يدور عليه الحول إلا وقد ارتبط بأخرى، كانت أمه تكرر له ذلك ليل نهار، معللة أن فرصه ستقل كلما تقدم به العمر دون زواج، كما أن واكد ووالي بحاجة لرعاية وتعويض عن حنان أمهما.

لكن هيهات، فلم يكن يفرق بينهم وبين سنية في العمر إلا ثمان سنوات تقريبًا، وبينها وبين محمد فارق من السنوات كبير، كانت في السابعة عشرة، وهو قد تجاوز الثلاثين. ورغم أن الحظ لم يهبهما كل ما تمنياه، كانا سعيدين متفاهمين، لا يكدر صفوهما سوى رغبتهما في إنجاب ذكر، وكلفهما ذلك إنجاب خمس إناث، فتشوا بينهم عن الذكر في كل بطن، حتى جاء أخيرًا مع توأم أنثى.

مات الذكر بعد أقل من شهر رغم كل محاولات إحيائه، لم يشأ الله أن يكون لمحمد مسالم طائع أبناء ذكور إلا من سعدية رحمها الله.

أما سنية فأنجب منها هند، وعزيزة، ودعاء، ورحمة، وأخيرًا إيمان، التي قتلت توأمها الذكر، إذ كانت تأكل أكله في بطن أمهما، كما كانوا يتندرون عليها عندما ولدت صحيحة البدن ممتلئة الجسد، وكانت أجمل أخواتها على الإطلاق.

رحل عشرات الآلاف ممن تم تهجيرهم قسرًا أو طوعًا، تفوح من حقائبهم وأمتعتهم رائحة الهزيمة القوية، من مدن القناة الثلاثة، وفي القلب من محافظة الشرقية بدلتا النيل، نال قريتنا نصيب من هؤلاء النازحين، التاركين وراءهم الذكريات والأماني، وأصوات الحرب والغارات وشبح الهزيمة!

انصهر الجميع بين أهل القرى الطيبين، ومن لم يجد له قريبًا أو صديقًا، احتواه الناس على قلة حيلتهم. مررنا جميعًا بفترة كساد جعلت البيوت تأكل خبز الذرة صافٍ غير مختلط بقمح، إذا ما توفر أصلًا. وكنا كأبناء المكان والسكان الأصليين للقرية، نصطحب معنا أبناء النازحين والمهجرين للعمل معنا في جمع دودة القطن، لمساعدة ذويهم على مقاومة اليأس، والحق أن الوضع كان فوق طاقتهم، فقد اعتادوا حياة المدن وطباع أهل البندر.

رحل الجميع لاحقًا ولم يبقَ منهم إلا من لا يملك بيتًا أو له عمل ثابت في مدن القناة، فضربوا جذورهم رويدًا في القرية، وصاهرهم الناس، لكن دائمًا وبعد مرور السنين ما زال يُشار إليهم بأنهم ليسوا من السكان الأصليين.

خلق الله الشمس لتحرق وجوه الفلاحين، فنحن نذهب للعمل في الحقول من قبيل الشروق، حتى نعود معها حين تغرب إلى ديارنا. يوم عمل طويل وشاق بثمانية قروش، وأحواض القطن على مد البصر خضراء حبلى بالنور والخير. يتم تجميع المحصول في جرن

مكاوي في مهرجان سنوي، تبتاعه الحكومة لمصانع الغزل والنسيج، ويأتي الفرج بعد الشدة عقب كل موسم حصاد. كان كل شيء مؤجلًا إلى ما بعد حصاد القطن، والأجر من لقط دودة القطن كان أسبوعيًا، وحين تتفتح الأزهار وتطرح الكساء بيد المبدع سبحانه، نبدأ في الحصاد بنفس الأجر اليومي. على ما أذكر، كنت أحصل على خمسة وثلاثين قرشًا في الأسبوع، وحين ينتهي الجميع من الحصاد كنا ندور في الأحواض نلتقط ما تم نسيانه، وإن كان شحيحًا، نجمع ما تيسر ونبيعه بعشرين قرشًا كنا نحتفظ بها لمصروفنا الخاص.

كانت المساواة في الشقاء مكفولة للجميع، البنات مثل الأولاد، وعصا الخولي لا تفرق بين الرؤوس الكسولة. والمنافسة قوية بين المعسكرين في الظاهر، وإن كانت قصص الحب والعشق والمراهقة والكراهية تبدأ مبكرًا في الخفاء. البعض يمارس الحب المنتهي بالزواج. رغم المرارة وقسوة الحياة اليومية، كان الإخلاص مزروعًا في نفوسنا، اللهم إلا من بعض الأنذال ممن مارسوا الحب مع البنات الشقية وتخلوا عنهن.

كانت الأيام مفعمة بالجهل والظلمة والفقر، ومصارعة الحياة من أجل اللاشيء.

الحق يُقال: انفطمت أمي خديجة الكبرى بعد موت أبي على الكفاح والمثابرة، كانت مثالًا للزهد والتقوى، تؤدي كل صلاة على وقتها، وتصوم السنن والنوافل. خاطت بيديها ثوبًا مخصصًا للصلاة يُسمى "غترة الصلاة"، كان لباس تقوى، لازلت أحتفظ به وأشم رائحتها فيه، منذ ماتت على صدري وقد تجاوزت الثمانين، كما مات أبيها على صدرها بعد رعايتها له قرابة الستة أشهر، في دورة الوجود الدائرة المتكررة.

كل لبنة في بيتنا القديم معجونة بالعرق والصبر، بعد دق طلمبة للمياه، ضربت خديجة الكبرى والصغرى الطوب طوبة طوبة ليلًا، وقامتا بتقليب القوالب، إلى أن يقوم البنّاء برفع القواعد نهارًا، حتى ظهرت للبيت ملامح ظلت منحوتة على وجه القرية قرابة نصف قرن. لا يرتفع بناء في القرية عن طابقين، حتى بيت العمدة المبني بالحجر والإسمنت.

وضعت أمي بابًا عظيمًا من الخشب للبيت، كأنه باب قلعة أو حصن، لا يمكن فتحه إلا من الداخل فقط. يفضي الباب إلى ممر كبير، على جانبيه غرفتان، خصصت اليمنى للضيوف والمناسبات، واليسرى مُلئت بأغراض المعيشة، وتحولت مع الوقت إلى غرفة كراكيب هائلة. وأطلت شبابيك الغرفتين على الشارع الرئيسي، مُحصنة بأسياخ من الحديد المزخرف.

بعد تجاوز الغرفتين وفي نفس الممر على اليسار، يوجد السلم المؤدي إلى المقاعد بالدور الثاني، مصنوع من الخشب، وضُرب فوقه درج من الطين. ويقابل السلم طلمبة المياه تحتضن حوضًا كبيرًا للسقاية، تشاركته المواشي وحيوانات الدار.

أما القاعة إلى اليسار بعد السلم، فكانت غرفة نوم مبنية فوق تنور للتدفئة في ليالي الشتاء، ويطل شباكها على السلم مباشرة، وإلى جواره مشكاة محفورة في الجدار، وُضعت بها لمبة جاز نمرة عشرة.

كان للدار جدران سميكة، تجاوز عرضها نصف المتر، مما جعل البيت طيب الهواء صيفًا وشتاءً، فقد صُنع من طين الأرض، وليس شيء أحن من الأرض على ابن آدم؛ فهي أصله، منها وإليها الموت والحياة. جدران لا تقهرها نار ولا لهب، صُنعت من طين وماء، وتصلصلت، فإذا ما سكنتها الروح أمست جزءًا أصيلًا من الزمان.

يقابل القاعة غرفة ليس لها باب، خُصصت لطهي الطعام، وصنعت أمي أمامها التنور، الفرن الفلاحي الذي أكلنا منه ما لذ وطاب من مخبوزات وطواجن. ما أكثر المناسبات! لا يعرف الناس في بلدتنا مناسبة إلا وقد ارتبطت بنوع معين من الطعام. المطبخ بسيط للغاية، تربع في منتصف جداره الكانون الذي كانت تطهو عليه الطعام على نار الحطب، وساعد الدخان المنبعث من ناره على طلاء المطبخ باللون الأسود.

وينتهي الممر بغرفتين متجاورتين، أولاهما حظيرة للبهائم والأغنام وخزين الأرض من تبن وعليقة وبعض المحاصيل. أما الثانية، فكانت لأبي ومعه الذكور من الأبناء، وأطلقنا عليها اسم "القاعة الصغرى".

طالما راودني الفضول وتساءلت: كيف جاء هذا العدد من البنين، رغم أنني لم أرَ بحياتي أبي وأمي مجتمعين تحت سقف غرفة واحدة؟

بُنيت الدار على قيراط ونصف وسط البلد، مما جعلها شاهدة على الأحداث.

أما الطابق الثاني، فتحمله قضبان خشبية قوية، تراصت من فوقها ألواح من الخشب، فصل بينها وبين طبقة الطين فرش سميك من البلاستيك، حماية من أمطار الشتاء. لم يكن بهذا الطابق غير غرفتين تطلان على الشارع، سكنهما لاحقًا الأخوان واكد ووالي، لتميزهما بالخصوصية والرفاهية والانعزال عن عشوائية وضوضاء الطابق الأرضي! وشاركت صوامع الغلال وبلاصات الجبن ما تبقى من الطابق الثاني.

كنا نأكل لحم الضأن مرتين كل عام؛ في النصف من شعبان، وفي عيد الأضحى. كانت البهائم سخية في حملها وولادتها، ببركة أبي التي سكنت البيت وسكن لها البيت. ولم يكن حال الناس ميسورًا بقدر حالنا. تيسر العيش بتعاون مسالم وخديجة، رغم سيطرة أمي على الإنفاق ورأس المال بالكامل، بسبب طيبة ورقة أبي.

كانت تشتري في كل عام قيراط أرض، وابتاعت من المواشي الكثير. كان يُضرب بها المثل، ويقال: "فلانة شاطرة مثل خديجة بنت عبد الماجد طائع!"

عم الخير البيت، وتسابق أهله في صياغة الحكايات، المضحك منها والمبكي!

حين أذاعت مكبرات الصوت خبر وفاة زينات في عام ٢٠١٦، تساءل الجميع: هل لمحمد مسالم طائع أخت تُسمى زينات؟!

السبب الأول كان حصولها مبكرًا على لقب "الصغيرة"، والثاني رحيلها بعد زواجها بأربع سنوات إلى المنصورة بصحبة زوجها، حين اشتد الخلاف بينه وبين والده، والذي انتهى بطرده من بيت العائلة في القرية نحو غربة المدن. كان ذلك سببًا كافيًا لتلاشي اسم زينات من ذاكرة حتى أقرب المقربين منها.

لم تكن زينات الصغيرة تحب هذا الاسم مطلقًا، بل كانت تغضب منه، بسبب ارتباطه في ذهنها بزينات الكفيفة في القرية، فكان يذكرها بالعمى والنفور. ولربما سارعت خديجة الكبرى في إطلاق لقب "الصغيرة" عليها، لتجنبها الضجر والضيق من الاسم الذي اختارته لها، فلم يكن يناديها أحد بعد ذلك إلا بما تحب، حتى زوجها كان يناديها "الصغيرة"!

القسط الذي نالته من الراحة في بيتنا، نالت أضعافه من الشقاء والتعب في الأربع سنوات التي قضتها في بيت عائلة عربي. رأيناها،

وكانت أجملنا، في أرضهم تدير الطنبور لسقاية الأرض، وكان هذا من عمل الرجال لما يتطلبه من القوة وطول البال.

لم تطل فترة شقائها رغم قسوتها، وبالرغم من حب عربي الشديد لها، كانت قلة حيلته في التمرد على تسلط والده لجامًا مشدودًا على حريتهم، حتى سنحت الفرصة.

تزامن طرد والد عربي له مع فرصة عمل معتبرة كسائق نقل ثقيل في شركة تابعة لمحافظة الدقهلية، ولقد كان سائق درجة أولى بارعًا. فحملا محمد عربي وغادرا دون تردد نحو المستقبل الجديد في المنصورة.

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت الصغيرة غريبة عن المكان، واعتبر الجميع أنها ليست من السكان الأصليين للبلدة، وساعدت هي في ترسيخ ذلك الانطباع، فلم تكن تزور القرية إلا نادرًا، حتى حدث النسب المشؤوم بين أبناء الصغيرتين.

وكما جاء المهاجرون من أهل البندر وانصهروا في القرية، انصهرت زينات مع أهل المنصورة، وتحدثت لغتهم، وأخذت طبعهم مع الأيام.

باعت نصيبها في الأرض من ميراث أبيها، وكردانًا من الذهب تملكه، مع ما كان يدخره عربي، واشترت قطعة الأرض التي بنت عليها بيتهم الحالي في المنصورة، ليشهد ولادة ثلاثة من الإناث على التوالي: نعيمة، وفاطمة، وشريهان، كلهم على ذكر واحد!

كان ركوب النورج من الأوقات الممتعة في حياة الأطفال هنا، كان النورج يُستخدم لدَرْس القمح واستخلاص حبوبه من السنابل، وهو عبارة عن قطع مستديرة من الحديد يشبه الساقية، يتم تركيبه في الدَّكَّة، وكان الطفل الصغير يركب فوق الدَّكَّة ويحفز البقرة على الدوران في دائرة مغلقة لا متناهية، وتوضع السنابل أسفل حلقات النورج. وبالرغم من تصميمه العائد إلى أيام قدماء المصريين، لكنه كان أكثر متعة مما جاء بعده من جرارات الحرث وآلات الدَّرْس. وكان الغناء وسرد القصص ملازمين لعمل النورج، فيتحول العمل الشاق إلى نزهة ومتعة، ونحن ننشد ونكرر: "رُدوا الرامية، رُدوا الرامية"، حتى نستخلص كل الحبوب من السنابل.

ولم يطل الأمر حتى اختفى النورج مع تطور الدنيا.

حَلَّت الساقية محل الطنبور في تطور أنقذ زينات الصغرى من التهلكة، ورغم صغر حجم التطور، إلا أنه خفف المجهود بنقل الجزء الأكبر من التعب للجاموسة التي تجر الساقية.

سعفان، رحمة الله عليه، كان يحمل على عاتقه مسؤولية إيقاظ أهالي القرية لصلاة الفجر، هو المنبّه الدقيق للمواعيد، صيفًا وشتاء، لا ينصرف من أمام بيتك حتى يبلغ منه التأكد مبلغ اليقين أن اليقظة دبّت في جدران البيت بتبادل النداء معه، كان يقول بصوت لم نسمع من بعده مثله: "لا إله إلا الله"، ويبادله من في

الدار من رجل بالقول: "محمد رسول الله"، فينصرف لدار الجار وهكذا.

قبل أن تحتل التكنولوجيا وموجات الراديوهات أثير القرية ويعرف الناس التلفاز، كان سعفان أكثر دقة وصدقًا وإيمانًا، مواقيت العجن والخبز كلها مرهونة بصوته، وصاحبت عبارة "حين مرور سعفان" أفواه النساء في كل مناسبة تستدعي اليقظة باكرًا مع صلاة الفجر. فعلها سعفان متطوعًا بغية الثواب من الله حتى مات.

لم يحمل حودة سعفان الراية من بعد أبيه، بل كان شديد القسوة، كارهًا للنساء بشكل ملفت، دائم السَّب واللَّعن، جعل النساء تحسب له ألف حساب عند الكلام معه في ماكينة الطحين الكهربائية التي اشتراها لاحقًا، بعد وقوعه في غرام الصنعة التي تجلب النساء إلى باب ماكينة الطحين خاصته، ليمارس هوايته في التحكم في النسوة، ومن تتجرأ بالرد على حودة، عليها أن تنتظر لليوم التالي أو تأخذ دقيقًا خشنًا غير مطحون جيدًا، ومضافًا إليه قدر لا بأس به من السَّب واللَّعن في المطلق، مما جعل الطحين أمرًا شاقًا رغم رائحة الخير التي كانت تملأ الدار عقب كل طحنة، فقد يكلفك الأمر البيات لمدة أسبوع بجوار أكياس وأجولة القمح والذرة منتظرًا دورك عند بابور الطحين، لنعود بالفرحة والخير ورائحة الدقيق، فتصنع منه خديجة الكبرى ما لذ وطاب.

وصل العلم متأخرًا بالتحصينات والتطعيمات محاولًا إنقاذ حياة الكثير من أطفال القرية، بعد أن فتكت بهم الحصبة والجدري وغيرها من الأمراض الغامضة، ومن نجا منهم عاش معاقًا بسبب شلل الأطفال، ومن تجاوز كل ذلك انتظرته البلهارسيا لتنهش كبده ومثانته على بُعد سنوات.

أتاح لنا الموقع المتميز لدارنا بوسط البلدة مشاهدة كل شاردة وواردة، أتذكر أن موت طفل كان بمثابة حدث أسبوعي إن لم يكن شبه يومي، يمر رجل يحمل بين ذراعيه رضيعاً ملفوفاً في "دَفّيَة"، وهي قطعة قماش من الصوف تشبه بردة الرجال، ليدفن ويختفي عن مستقبل العالم، ويرجع أهل الطفل بدونه وهكذا دواليك، لا حساب ولا عدد، أو كما قالت خديجة الصغرى: "لم يكن هناك حبوب منع الحمل".

قليل كان من يتعامل بالنقود في البيع والشراء اليومي، معظم البيع والشراء كان بالذرة، بالترمس، بالقمح، أو بالأرز. واستمر نظام المقايضة لوقت طويل حتى تمرد عليه أصحاب الدكاكين في نهاية الثمانينات بشكل كامل، وامتنعوا عن البيع مقابل كيزان الذرة، إذ لم تعد ذات جدوى، أو تحمل عائدًا مجزيًا. وتندّر أهل البلد قائلين: "أصحاب الدكاكين شبعوا خلاص".

كان الناس يرتدون ثيابًا أكل عليها الزمن وشرب، وصبغتها الشمس بلون الشقاء، ورقّعتها فصول السنة برقع متفاوتة الأحجام، لم يملك

الكثيرون إلا ثوبًا واحدًا، يغسلونه وينتظرون حتى يجف لارتدائه، ولم يشهد رجل ولا امرأة ولا طفل ثيابًا جديدة إلا في عيد الفطر. كانوا يشترون من البندر القماش المزركش للنساء والسادة للرجال، ويتزاحمون فوق رأس عزت الخياط ليفصّل ملابس الرجال بعد رفع المقاسات، وفي المقابل تقوم زوجته نجية بتفصيل ملابس النساء والأطفال.

وسرعان ما تبهت ألوان الثياب الجديدة، وتختفي ملامحها تحت نير الرقع، فلا تعرف لها أصلًا ولا فصلًا.

وكانت أيام الحصاد تحمل معها الفرج للجميع، وبالأخص يوم حصاد الذرة.

كان الباعة يجلسون بالطرقات وأمامهم العسلية والترمس والسردين، يقايضون كل سلعة بكيزان الذرة. أما الفائز الأعظم في كل موسم حصاد فكان يسري الحلاق، الذي يجني أخيرًا حصاد صبره.

كان الزبائن يدفعون مقابل الحلاقة بالذرة والقمح، إما بدفعة سنوية أو على دفعتين نصف سنويتين. كانت ميزانية الحلاقة معلومة للجميع ومحل حسبان لا يمكن نسيانه في إدارة المحصول. كان يسري يحلق طوال الموسم أو طوال العام لكل عائلات وأبناء القرية بالأجر المؤجل. وعندما يحين موعد السداد، كان كل من يحوز أرضًا من زبائن يسري يرسل قفة أو اثنتين من القمح وغبيطًا من الذرة حتى تمتلىء دار يسري بالخير، وحينها يقول الناس - متناسين

حلاقتهم طول العام بالآجل وصبر يسري على ذلك - قولتهم الشهيرة: "دا يسري أحسن ممن يملك أرضًا". هذا ديدن الناس وطبعهم.

كان يوم حصاد الذرة بالنسبة لنا يوم عيد بحق، إذ يمكننا شراء كل ما تشتهيه أنفسنا من الدكان، ما علينا سوى أن نسحب كيزان الذرة من وسط الدار، إن لم تكن صعدت لسطح البيت، والذهاب مباشرة إلى دكان السيد الكبير.

تضمنت حياتنا أيامًا من البهجة لا يمكن نسيانها، أتذكر أننا كدنا أن نجن من فرط السعادة، وكان الواحد منا يقفز فرحًا لا تكاد قدماه تلمسان الأرض من المفاجأة حين سمعنا للمرة الأولى صوت الراديو في البيت. ابتاعته خديجة الكبرى بعد إلحاح طويل، وكان ذلك قبل وفاة أبي بشهور قليلة، اتسعت أعيننا ونحن ننظر نحو الراديو متسائلين: أنّى له أن يحمل هذا الكم من الناس بداخله؟ وما هذا التقدم الذي وصل إليه العالم لكي نستطيع أن نسمع أصواتًا من القاهرة في دارنا بالشرقية؟ لقد اقتربت القيامة.

لقد سمعنا صوت الراديو يتكلم من قبل في عدد قليل من بيوت القرية، والآن تحقق الحلم، بعد أن اشترطت خديجة الكبرى أنها اشترته ليذاع بالدار القرآن فقط، لكن هيهات هيهات، تنقلنا بين المحطات مثل الفراشات في نسيم الربيع على أوتار الأثير، وذقنا أخيرًا متعة مما ينعم بها أهل البندر.

كانت أمي تصطحبني في رحلة أسبوعية كل أربعاء، لنبيع السمن والجبن، فلم تكن تجارة رائجة في الأرياف بسبب الفقر وقلة الزبائن.

توقظني خديجة الكبرى فجر كل أربعاء، متشبثين بما تبقى من ستائر الليل في طريقنا إلى كفر شاكر، تحمل هي السمن وأحمل أنا الجبن، حيث السوق الكبير والخلق في ملكوت الله الواسع، المزدحم بباعة الخضر والفاكهة، وتجار المواشي والمعلمين، ونساء القرى، ولصوص النظام والزمن. كنت أميز السوق حين نصل إليه بقهوتين متقابلتين لهما نصيب من الزبائن والشهرة.

كان الكثير من الناس في طريقهم إلى السوق أيضًا، يراهم الناظر من بعيد كأشباح متعبة عجوزة، قبيل ولادة نور الفجر. قطعنا مسرعين مسافة قرابة عشرة كيلومترات ذهاباً، ومثلها في الإياب على مهل، ابتغاء اللحاق باستفتاح السوق، وهروبًا من أشعة الشمس التي إذا ما أصابت الزبدة حوّلتها عن صلابتها الكروية التي تباع بها إلى سائل لا يباع ولا يُشترى، فلم تكن المبردات قد ظهرت في الأرياف بعد، واعتمدنا في تبريد الزبدة على وضعها في نسيم الليل فوق سطح الدار لتبرد وتتماسك خلال سفرها الطويل نحو السوق. فلو ساحت الزبدة، كنا نعود أدراجنا دونما بيع، ولا نحصل من سفرنا هذا إلا المشي وتنفس تراب السكة، ويشهد الله أن أمي رغم قسوتها لم تكن تُبخسني حقي في هذه الرحلة الأسبوعية، وتكون المكافأة ضعفين

في حالة البيع الرابح لكل رطل زبدة، فالبيع كان بالرطل، لا وجود للميزان والكيلو بعد، ولا يزال الخير والأمان حاضرين رغم كل شيء.

كفلت لي أمي حرية الاختيار في كل مرة بين "الصاغ الأبيض" ذي الأركان، المصنوع ربما من الألومنيوم، وبين الصاغات الحمراء المصنوعة من النحاس. حتى أبي، كان ينول نصيبه من السعادة إذا ما ربح البيع، فيحظى بباكو معسل للجوزة هدية فوق حصته المعلومة من خديجة الكبرى، التي كانت تحضر له المعسل رغم كرهها الشديد للمعسل ولكل أنواع الدخان، لكن ليس من الأمر بد، ففي كل مرة كان حب خديجة له، وتدينه الزاهد، وعشقه لأهل المحبة شفيعين له عندها. وكانت تقول عنه: "لم يكن في أبيكم عيب إلا الجوزة".

عشق الموت أرواح الرُّضَّع، ومن فرط عشقه رمى الموت سهمين أصابا عطية وعبد الفتاح، الأول أصيب بسهم الحسد من شدة جماله، غلبت العين التي أصابته كل أنواع الطب الشعبي، ولم يُفلح راقٍ في أن يمنع النفس الخبيثة التي حسدته من التفافها حول روحه، فتجسدت العين في حمى قاتلة تمكنت منه في أقل من أسبوع، وحملته "الدَّفِّيَة" بين يدي أبيه إلى المقابر، فأصبح كومة أخرى من أكوام عظام أطفال القرية الرقيقة.

أما عبد الفتاح فأصيب بالسهم الأكثر قسوة، حكت خديجة الكبرى حكايته في كل مرة بنفس التأثر والندم، وحمّلت نفسها ذنب أنه كان في قدرتها بناء حائط الحيطة والحذر، تصد به سهم الموت والندم والحزن.

قالت خديجة الكبرى وقد تحجرت الدموع في مقلتيها: كنا في "طوبة"، طوبة يخلي الصبية كركوبة من شدة البرد، فعقدت العزم على خبز الفطائر بتنور قاعة القبة الرئيسية، فكرت بإصابة عصفورين بحجر واحد؛ حجر نار التنور التي تصيب الفطائر بنارها، وحجر الدفء ينال من برد الشتاء الملتصق برطوبة الجدران، فأصاب الحجر ثلاثة عصافير!

قبيل أذان المغرب وضعت عبد الفتاح فوق القبة لينال قسطًا من الدفء بعد أن أرضعته، وغطَّ في نوم أخير لم يذق نوم بعده. رحمة الله عليه، استغل الموت غيابي، واستجابتي لنداء البقرة لكي أحلبها،

فسقط من فوق القبة، والتهمت فوهة التنور رأسه بنار حامية لم تمكنه حتى من الصراخ بشكل طبيعي، ومات بعد ساعات من أثر الحرق، قتله الإهمال، غفر الله لي وله.

لم تكن خديجة الكبرى تحب أن يذكرها أحد بسيرة عطية وعبد الفتاح، فينفطر قلبها قهرًا عليهما، ويتمكن منها الشعور بالذنب، فتتحول عن الدنيا بلبس الغترة والانقطاع للصلاة والاستغفار ليوم وليلة متواصلين.

وسّع مسالم طائع البيت بإضافة مقعدين إضافيين على سطح الدار لزواج عليوة وحمادة، تحت مظلة المشورة الحانية لخديجة الكبرى. رغم كل محاولات التعليم المكثفة للأخوين، إلا أنهما عرفا بالفشل الذريع في تحصيل العلم، وطغت هواية كل منهما على تحمسهما لنيل الشهادة الابتدائية، فتركا الدراسة قبيل السنة السادسة. افتتن قلب عليوة بالجرارات الزراعية وآلات الحصاد الجديدة، وانحصر طموحه في أن يمتلك جرارًا بمشتملاته، لكن مزاجه أفقده القدرة على الادخار، كان يأكل التبغ أكلاً، ويتغذى دمه على الشاي، وتنجب زوجته كل عامين طفلاً يموت بدون سبب. لم يستطع عليوة تحقيق معظم أحلامه البسيطة، حتى نوال مصباح التي عشقها وحلم بها لم تكن من نصيبه، فقد كانت لعوباً تُشاغل الكثيرين من شباب البلد بجمالها وحركتها المفرطة، فدفعه حبه لرؤوفة أم زوجته لأن يقبل بالزواج من ابنتها سعاد بالرغم من قلة جمالها، وأخلص لها ما تبقى من عمره، وأنساه حبها حلمه وتعلقه بنوال.

كان اليوم ثاني أيام عيد الأضحى، أرسلتني أمي بعد ذبح خروف العيد، أنا وخديجة الصغرى نحمل لحمة العيد إلى سعاد، فقد جرت العادة على هذا. انطلقنا بعد العشاء نتغمز غمز النساء متأهبين لتقييم عروسة عليوة، أصابنا الذهول من حالها، منكوشة الشعر، مهملة الثياب، نائمة فوق كنبة وسط البيت، خنفاء الصوت، ممتلئة البدن قليلاً، لكنها طيبة مرحة بيضاء القلب.

لم يكن بالبيت أحد سواها، حاولنا إيقاظها لسؤالها عن رؤوفة لنعطيها العيدية، فبدأت في المزاح والضحك كأننا نداعبها، حاولت إبعادنا بصوت فيه حشرجة نوم وخمول، تركنا العيدية - لحم الخروف - وعدنا أدراجنا، يملأ الضحك فمينا والتندر على الحال الذي سيؤول إليه عليوة بعد زواجه من سعاد بنت رؤوفة. بمجرد أن عبرنا عتبة البيت، سردنا لخديجة الكبرى ما رأته أعيننا، قلنا لها: عروسة سوداء منكوشة الشعر، وستجعل أيام عليوة أسود من قرن الخروب. وحاول الجميع إثناء عليوة عن الأمر، فرد بعبارة أنهى بها كل المحاولات وأسكت الجميع، وفهمنا أبعاد الزواج، قال: "سأتزوج سعاد مهما حصل، فأمي روفا" - يقصد حماته رؤوفة - "قاعدة في قلبي متربعة".

تزوج عليوة وسعاد، اختار له مقعدًا في الدور الثاني، كانت المقاعد مخصصة للعرسان، لأن القاعات في الدور الأول كانت منعدمة الخصوصية.

مات ولدان وبنت ممن حملت سعاد خلال حياتها التي لم تنقطع فيها عن الحمل والولادة، وعاش لها: محمد، وشريف، ونجية، ثم خلفاوي، وحامد، ومحمود، وأحمد، وأخيرًا عائشة.

كلما جاء طفل تلاشت أحلام عليوة، حتى وصل إلى درجة من اللامبالاة يُحسد عليها، وتمكنت السجائر والشاي من قتله عند الخامسة والستين من عمره، لم ير الأطباء في رئته إلا سواد الدخان

الذي صبغت به الأيام صدره. ترك أبناءً مجتهدين في الحياة رباهم الله وحده، فالهداية من الله.

كل عائلة لها بيت واحد كبير، يسكنه كل أفراد العائلة، كان سمك الجدار يتجاوز في بعض الأحيان المتر من الطوب اللبن، مما أكسبه جوًا لطيفًا في الصيف، لكن الشتاء كان مزعجًا، لم نكن نستطيع التنفس في القاعات جراء إحمائها بنار التنور أسفل كل قبة، ولم يعرف الناس أوكسجين وما أوكسجين، ويختنق الجميع نيامًا بعد رفض خديجة الكبرى كل نداءات الاستغاثة لتهوية القاعة ولو قليلاً، فتجيب أنها لن تفسد الدفء الذي نجحت في تحقيقه فتبرد القاعة من جديد، فلم يكن في الأمر حيلة غير أننا كنا نتخلص من أكبر قدر من الثياب، وننام كقتلى قنابل الكيماوي حتى الصباح.

حتى أن كثيرًا من الأطفال كانوا يموتون نتيجة الاختناق، ولم يستوعب الناس السبب، فقد كان الجهل حاضرًا بقوة. عاد حمادة من المدرسة ذات يومٍ متفاخرًا بأن الأفندي عاقب جميع تلاميذ الفصل عداه، وكان حكَّاءً ماهرًا منذ نعومة أظافره حتى الآن. ومع تفحص خديجة الكبرى له، كشف ما حاول حمادة أن يخفيه بسهولة، فقد بلل سرواله من الخوف، ويا ليته وقع تحت عصا الأفندي خيرًا له.

اعتبرنا ذلك الحادث نكتة ساخرة، تندرنا بها حتى الآن من وراء ظهر حمادة، لأن ذلك كان يُغضبه حتى رغم تقدمه في العمر. لم يفلح في

التعليم كما لم يفلح عليوة، وأخذ حمادة في حياته منحى لم يعجب الجميع، حتى أوصل هذا المنحى الأمور إلى أن ماتت خديجة الكبرى ومحمد مسالم وهم غير راضين عنه، وحرص الجميع على تجنب الخوض في سيرته إلا نادرًا، حتى أمي التي أحبت الحكايات، وعادت وزادت في قصص الجميع، كانت تتجنب الاسترسال في حياته، ربما خوفًا وربما حزنًا. وكان قد تزوج هو الآخر، وكان آخر من تزوج بحكم السن، ورزقه الله: حورية، وأحمد، ونسمة، وخديجة، وسمية، ومسالم.

يوم مات أبي، مرت الجنازة من أمام البيت بحكم موقع الدار بعد مسجد مكاوي، وقبل مقابر القرية المتراصة حول ضريحي الشيخين، وهما ضريحان لعالمين يقال إنهما جاءا من المدينة المنورة مع الفتح ودفنا هنا، وبنى لهما أهل البلدة ضريحين لكل منهما قبة، واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، وذلك حسب ما نُسب لهما من كرامات. وكما تواردت الأخبار بين أهل القرية القدامى، حكى الكثيرون عن رؤية الشيخ الكبير يصول ويجول بفرسه في القرية ليلاً لحمايتها بعد مئات السنين من موته. وقد تفتّح وعي الجميع على تسمية القرية بقرية الشيخين، دون معرفة زمن بداية الاسم ودون نهاية، ما دامت الكرامات تتسلل متخفية بين شوارع وحارات وأزقة البلد، تتناقلها الأجيال. وكان مسالم طائع - رحمة الله عليه - ممن استقر في قلوبهم عشق الشيخين وهام بهما على وجهه، فكان أول الحاضرين في المولد السنوي، وفي كل حلقة ذكر أو جلسة مدح أُقيمت للشيخين، حتى إن خلافًا كان واقعًا بينه وبين آل مصباح، حيث مال قلبه وفضلت نفسه الاحتفال الذي يقيمه منافس محمد مصباح على احتفال آل مصباح، وانقسمت البلدة تباعًا إلى حزبين من المريدين، وكاد ذلك أن يدمر زواجي من أبيك تمامًا، وكانت هذه الحكاية ستختلف تمامًا، لكن أمر الله نافذ.

كانت الجنازة في يوم جمعة، والمشهد حافلًا. حمل الرجال الخشبة فوق أكتافهم، ومن فوقها أبي تحت كسوة خضراء زاهية، رقصت حولها روحه الطيبة كفراشة تحررت لتوها، ووقفت النسوة أمام

الدار ينتظرن، وكسا المشهد لون السواد الخام حول خديجة الكبرى والصغرى وزينات ونساء القرية. كنت بنت الاثني عشر ربيعًا، زهرة تطلعت إلى سنوات الصبا، ولكنها أدركت مبكرًا قيمة النواح والصراخ، دواء مرّ يعالج كل داء يجلب الحزن والأسى، وينفث الهم والضيق.

خرجت البلدة عن بكرة أبيها تودع الرجل الطيب، وما أن مر الموكب أمام الدار، خرجت من بين أضلعي صرخة قوية: "يا حبيبي يا با". تجمد على أثرها الكون وسكنت الكائنات عن الحراك، وتوقفت الجنازة، وتحجر النعش فوق أكتاف الحاملين له. حينها قام خفيف شملان بزجري بسبب صراخي الملهوف على أبي.

قال أخي محمد، وكان بين حاملي الجثمان: "ماذا بكم؟ لماذا توقفتم بلا حراك؟". حاول أشداء الرجال سحب النعش بلا جدوى، فقد تجمد كالجبل. فأعلنت خديجة الكبرى عن كرامة رفيق دربها بزغرودة كسرت بها الصمت، وتبعتها خديجة الصغرى، فانفجر أشد الرجال صلابة بالبكاء، وعلت الأصوات: "لا إله إلا الله"، وهتف سعفان بصوت جهوري: "نزلوا الأمانة... نزلوا الأمانة".

فوضع الرجال النعش أرضًا أمام باب الدار، ودارت حلقة ذكر: "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بُكرةً وأصيلًا، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب

وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون."، "اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أنصار سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد، وسلم تسليمًا كثيرًا."

وردد الجميع نساءً ورجالًا وحتى الأطفال:

"لا إله إلا الله... لا إله إلا الله... وحد... وحد!"

والله إني رأيت الجميع وقد ابتلت عيونهم بالبكاء والشغف. اهتز خفيف شملان بالنشيج، وسارع بالجلوس فوق مصطبة البيت حين خانته قدماه، ولم تعد قادرة على أن تحمله من مفاجأة تحول المشهد. وبكيت أنا ولم أتوقف عن تكرار الصراخ بالقول: "يا حبيبي يا با"، حتى أشار لي أخي محمد إشارة تحذير مغلفة بالرجاء إلى التوقف، كان في موقف لا يُحسد عليه، بعدما استمرت حلقة الذكر قرابة النصف ساعة، كادت الأمور فيها أن تخرج عن السيطرة، وبدا أن بينه وبين فقدان سيطرته على الموقف ثوانٍ معدودة.

ارتفع صوت النسوة بالزغاريد حين تحرك نعش مسالم طائع المحمول على أكتاف الرجال مسرعًا إلى مدفنه خلف ضريح الشيخ الكبير، وتكرر الأمر هناك بعدما سحبهم مسالم طائع أمام عتبة الضريح، وتكررت طبقة أخرى من الذكر قرابة الخمس دقائق، ثم انتهى المشهد وأُغلق القبر. لكن الحكايات في بلدتنا لا تنتهي، تناقلت البيوت القصة عبر الأجيال، بالمبالغة مرة، والسخرية مرة،

ولم يكن بعد العين أين، ولم تكن كرامة مثل تلك ببعيدة أن تقع للرجل على ما كان عليه مع الله وأهل الله.

لقد صنع الله مسالم طائع من صلصال طيب لا يشوبه شائبة حقد أو شر.

قال محمد مسالم طائع لاحقًا: "والله لو لم أكن من بين الحاملين للخشبة ما صدقت!"

بكى الجميع على أبي، حتى حيوانات الدار بكت عليه لما وُضع للغسل وسط الدار. علا صوت البقرة بالنحيب وبكت، وهي التي لم تعرف لغة البكاء، حتى قصدها شملان الكبير وكان طاعنًا في السن، ومسح عليها لتسكن، وماتت بعد موت أبي بأيام، وتبعتها كل حيوانات الدار. كان كل ذلك خير أبي، هكذا قالت خديجة الكبرى، رغم أنها من كانت تشتري وتربي وتبيع، لكنها فهمت فلسفة الرزق وأسبابه.

منذ سن السابعة تقريبًا استعان بي أبي كمساعدة شخصية له في تحضير وشرب كرسي المعسل اليومي، فلم يكن يزيد عن حجر جوزة واحد في آخر كل يوم. تجرأت مع الوقت على مساومة مسالم طائع لتذوق نفس معسل في كل مرة أقوم بغسل الجوزة وتغيير مياهها، وتطور الأمر حتى وصل إلى نفسين وثلاثة أنفاس. كادت الأمور تتحول من اللعب إلى الجد والتعود، حتى خطف الموت أحنّ رجل في الدنيا. وكنت أتعجب من حالي... كيف لأنثى أن تشرب المعسل؟

لكن هذه الدهشة زالت لما انتقلت إلى بيت عائلة مصباح ورأيت كعب الخير!

مات أبي كما حدد الموعد بالتمام، سنة واحدة بعد خروج محمد من الجيش. لم يطل مرضه عن الأسبوع الواحد، ولم يعرف أحد سبب مرضه، ولم يكن يشتكي، دائم الذكر والتسبيح. وما حزَّ في نفسه غير أنه لم يقدر على الخروج لصلاة الفجر ذلك الأسبوع كما تعود طوال عمره، وذكرت لنا خديجة الكبرى لاحقًا أن دمعه كان يسيل بغزارة كلما مر سعفان مناديًا للصلاة قبيل الفجر، فيجيب هامسًا في هدوء: "محمد رسول الله".

لم يكن أبي - رحمة الله عليه - يعرف شكل الفلوس ولا يحب حملها، ولا يستطيع التمييز بين الفئات المختلفة لها. فقط كلما أراد باكو دخان أخذنا من خديجة لنبتاع المزاج والمتعة الحسية الوحيدة للرجل في الدنيا.

كنت أبتاع الدخان وأشعل كوالح الذرة، وأغير مياه الجوزة، وأضبط معيار الماء بها، ويقول لي في كل مرة بابتسامة حانية: "مافيش حد غيرك يظبطها يا جنّية". عمل فقط في أرضنا، ولم نشهد يومًا أنه عمل بالأجر عند أي شخص في البلد أو خارجها. عمل في أرضنا ووقف حارسًا على ما كانت تجمعه خديجة من أرض ومواشٍ وأغنام قام برعايتها. كنا نعمل ونعطي الأجر لأمي، وتدخر المال على قلته مع ما تنتجه بهائم الدار من خير، فابتاعت أرضًا بشكل سنوي

تقريبًا، وضُرب بها المثل في ذلك. كان قيراط الأرض بعشرين أو خمسة وعشرين جنيهًا على أقصى تقدير، والغريب أنها كانت تنسب كل الفضل في اتساع وتيسير رزقها إلى مسالم، قائلة: "هذا رزق أبيكم وخير أبيكم." كان بينهما من الود والسر ما الله به عليم، وعاشت بعده عمرًا طويلًا، رأت خلاله أحفاد أولادها.

(محمد مصباح)

رؤية "كعب الخير" عن قرب أمنية وحلم محاط بالحذر والترقب، طالما تمنيته قبل الزواج من أبيك، ولا سبيل لذلك غير دخول بيت آل مصباح، فحظيت بأبيك، وجدته موضع ضرب المثل بالحسن في البلد وأجوار البلد، ممن نال فرصة رؤيتها أو سمع عن حسنها كأنما جاءت من كوكب آخر. ولم تكن كعب الخير كثيرة الظهور رغم تمتعها بصحة جيدة، فبدت وكأنها كانت تعاند الموت.

حملت أجيال متناثرة من آل مصباح صفاتها الوراثية، بالأخص عينيها الزرقاوين الساحرتين، أولهم محمد مصباح الابن البكري لكعب الخير، إلا أن ضعف نظره أخفى جمال عينيه وراء زجاج نظارة سميكة رأيناه بها باكرًا. كان رجلًا يحمل من الصفات المتناقضة ما يثير الدهشة والعجب.

لا أحد غيري في البلد يحمل اسم كعب الخير، فقد كانت فريدة بحق، وكنت فريدة لحملي اسمها، اكتسيت بغلاف من أغلفة الأساطير فقط لحملي الاسم، ولم يكن هناك داعٍ للتفريق بيننا بكعب الكبرى والصغرى، فقد تركت الموت يغلبها بعد أربعة شهور فقط من زواجي بحفيدها ودخولي بيت عائلة مصباح.

موت كعب الخير بهذه الطريقة كان لعنة أصابت آل مصباح ومن دار في فلكهم عبر الأجيال. تناقض شخصية محمد مصباح أوقعه في الكثير من المصائب وملامسة الكبائر، لكن في تلك المرة دفعته الغيرة إلى ارتكاب حماقة جعلته يعتدي بالضرب المبرح على أمه

كعب الخير عقب عودتها من مديرية التحرير، حيث مكثت هناك بضعة أيام دون إذنه عند زيارة أختها المتزوجة هناك. ولما كان هو الذكر الأكبر بين الأبناء، وقد فارق أبوه الدنيا منذ سنوات قليلة، تاركًا وراءه أرملة من أجمل نساء الدنيا، وخوفًا من انفراط عقد السيطرة على البيت من بين يديه، وسيطرة فكرة أنه قد حل محل أبيه مصباح الكبير، مارس محمد مصباح كل أنواع التسلط التي يمارسها رجال القرية مع أزواجهن على أمه، فاستدعت الموت سريعًا، وبكى ملك الموت حزنًا حين قبض الروح من هذه الرسمة الإلهية النادرة الساحرة. لا يسعك إلا الدهشة عند النظر في وجهها، ولا تلتفت بنظرك عنها أبدًا، لعلمك أن عينيك لن تصادفا شيئًا بمثل هذا الجمال مرة أخرى.

استقرت حدقتان زرقاوان كزرقة البحر وسط عينيها اللامعتين الصافيتين، تحيط بهما رموش كثيفة، وعلاهما حاجبان دقيقان صبغهما الزمن بلون الحنة، وسط بشرة بيضاء صافية إلا من نمش بسيط زادها حسنًا.

ورغم تجاعيد الزمن، ظل وجهها ممتلئًا، ولم ينقص بنيانها حين ماتت إلا خفة روحها. كانت فارعة الطول، قوية، ملفوفة القوام، تحمل بين أضلعها قلبًا مستسلمًا لنكبات وتقلبات الدهر، كأنها كانت تتطلع إلى عالم آخر ينتظرها، كأن الله قد وضعها في الدنيا ليري الناس معجزةً من جمال خلقه وإبداعه.

سلّم محمد مصباح أذنيه للقيل والقال، وبين أهل الريف لن تسلم من ألسنة الناس ولو رأوك تمشي على الماء الجاري، وقالوا إن كعب الخير ما كان يجب لها أن تقضي بضعة أيام عند أختها في مديرية التحرير بمحافظة البحيرة، التي كانت تعتبر سفرًا بعيدًا عن الشرقية في ذلك الوقت.

لقد مات زوجها، ولو أنه حي ما كانت لتفعل هذا الفعل. واتهمت الألسنة محمد مصباح بأنه تارك أمه تمشي على حل شعرها، مما أدى إلى إشعال النار في قلب الابن الغيور، وأعماه الغضب، فقام بضربها ضربًا مبرحًا لا يمكن وصفه، ولا يود أحد أن يتذكره. ومن العجب أننا لم نرَ أي مظاهر للندم من الابن على أفعاله طوال حياته، حتى موته في العام ٢٠١٤ عن عمر تجاوز الثمانين!

لم تمر أربعة أيام بعد مصابها الأليم على يد ابنها البكر، حتى كانت قد اعتزلت ما حولها، وسكنت قاعتها، وتوقفت عن شرب المعسل في واقعة نادرة الحدوث أنبأت بما يليها، وأدرك الجميع أنها تستعد للرحيل. اجتمعت بناتها حولها، حتى إذا كان اليوم الرابع بعد صلاة الظهر، أفقدتها سكرة من سكرات الموت توازنها، وكادت على أثرها أن تسقط من اتكائها أرضًا. بادرت ابنتها الصغرى فتحية بالنحيب والصراخ، فاعتدلت كعب الخير وجلست منتصبة، ونهت فتحية عن الصراخ. جلست لدقائق وقد أعطت ظهرها للجميع، ووجهت وجهها نحو حائط مسندة رأسها على جدار القاعة. ثم سكن الكون،

وارتفع صوت أنفاسها كأنها كانت تركض في البرية، ثم توقفت عن التنفس، وفاضت روحها إلى بارئها.

ماتت كعب الخير وهي جالسة، غير راضية عمن خلفها حين أدارت ظهرها للجميع، كأنها تقول: لقد ظلمني الله حين متعكم بالنظر إلى وجهي، وأنتم لا تستحقون ذلك.

كان يومًا قُطعت فيه ألسنة الناس، وشيّعها أهل البلدة بعد صلاة المغرب. لم يرَ أحد في القرية من هي أجمل من كعب الخير بعد ذلك، فقد عاقبهم الله بحرمان ذريتهم من وراثة جمالها بعدما قتلت ألسنتهم هديته لهم.

تزوجت عند عائلة مصباح، ورأيت منهم ما لم أرَ بحياتي: ضرب وشتائم، وكل أنواع الجوع والعمل المرهق المتعب. يشهد الله أنني قد أدركت حجم خير خديجة الكبرى حين انتقلت إلى بيت آل مصباح، لكن للحب ضريبة باهظة دفعتها بالكامل، كانت قصة حب وقف ضدها الجميع هنا وهناك، وبالأخص آل مصباح.

أحبني أبوك منذ رؤيتي طفلة، رغم تقدمه عني في العمر بثماني سنوات. لفت نظري، وانخطف له قلبي من بين أبناء القرية الذين داروا مع دائرة الشقاء والتعب تحت شمس الكبت والحرمان. شاغلني وشغلني، حتى لم أعد أبصر غيره بين رجال الدنيا. أعجبني تميزه عن باقي إخوته وحتى عن باقي الشباب، حمل صفات آل مصباح، إلا من عينين خضبتا بلون العسل اللامع المضيء، بفضل شعاع شمس كل شروق وغروب. ومما زاد الأمور توهجًا أن آل طائع وآل مصباح جمعتهم ساقية واحدة بحكم جيرتهم في الأرض، ولكل منهم حظيرة كبيرة للمواشي، توسطت بينهما شجرة صفصاف عتيقة رمت بظلالها فوق الذكريات، وتطاولت خمس نخلات حول الحظائر، مرّت من بينهم قناة لسقاية الأرض. وعلى مقربة من الساقية رسم محمد الخفيف شملان لوحة أصغر على رأس أرضه القريبة، فرش أرضها بالنعناع البلدي والأفرنجي، وظلّل عليها بشجرتين من الطلح، تشاركت معهما بعناد شجرة تين شوكي، شوكها حاد مؤلم لكل من جرى ريقه وسال لعابه إذا وقعت عيناه على ينع ونضوج ثمارها بألوانها اللامعة، وحاول سرقة حبة واحدة من جنة

شملان الصغيرة. تبادلت النظرات مع أبيك فترة طويلة، دون أن يجرؤ أحدنا على توجيه كلمة واحدة للآخر، لكن الأرواح كانت جنودًا مجندة، والمشاعر لا تصفها كلمات. أحبني وأحببته قبل وفاة أبي، ولما كان الجميع يهرب من توصيل طعام الغداء لمسالم طائع في صُرّة من القماش أعدتها خديجة الكبرى، رحبت أنا بالمهمة الشاقة ابتغاء رؤية أبيك، حيث يمكنني رؤيته يعمل في أرضهم أو يجلس تحت ظل الصفصافة يتناول الطعام على مقربة من أبي. ولم يكن هناك حاجز يعيق تودده إلى أبي ومحاولة التقرب إليه، إلا ما كان واقعًا من خلاف بين مسالم وبين محمد مصباح بسبب عدم ارتياح الأول إلى الانضمام لمعسكر الثاني في الاحتفال بالمولد السنوي للشيخين في شهر يوليو من كل عام.

كان احتفالًا كبيرًا بحق، ولكن بهتت ألوانه مع تقدم الأيام وتبدل الأجيال. لكني أشهد شهادة حق بأن أبي لم يكره أباك لشخصه، وإنما أخذه بذنب عدائه لأبيه. فلم يكن يحب محمد مصباح رغم شعبيته الأوسع داخل البلد وخارجها، وأحقيته بإقامة الاحتفال، فقد كان أول من ابتدع الفكرة التي جاءت نتيجة رؤية جاءه فيها الشيخ الكبير ممتطيًا فرسه، ومعاتبًا إياه عن انشغاله بالموالد المقامة خارج البلدة، وأن عليه أن يهتم بمولد بلدته حتى لا ينقطع حبل الود والعمار بينه وبين الله. وكانت كعب الخير قد قالت قبل موتها أكثر من مرة إنها رأت الشيخ فوق فرسه وقد دخل إلى دارهم، فرماها الجميع بالخرف الناتج عن كِبَر السن، إلا محمد مصباح، الممسوس

بالكرامات، المسحور بالطريقة، والحافظ لأوراد الذكر المسجعة بالكلمات القوية الصعبة، ليصبح مع تقدمه في السعي أشهر مريد في الناحية كلها، بعدما أخذ العهد المتصل بسند الولاية للطريقة الرفاعية.

تنبأ قلب أبي بما قد يقع، وأحس بانشغالي بأبيك، فكان ذلك يؤرق فكره ويعكر صفو مزاجه، لكنه آثر الصمت لوقت طويل.

كنت حين تخلو الساقية من البشر، ويحدني النخيل وحدي مع أبيك، أخرج مسرعة نحو السكة العمومية خوفًا منه رغم حبه، لكن ما كنت أسمعه من قصص تقع بين الشباب والبنات في السواقي والغيطان دبّ منه الرعب في فؤادي، فلم يكن أمامنا غير أن نتزوج. فنظرات حب تجاوزت مراحل الإعجاب، وبدأ الأمر ينكشف رويدًا، وفضحتنا النظرات، وحاول الجميع بناء الأسوار والعقبات بالقول والفعل للحيلولة دون وقوع هذا النسب.

تركتْ كعب الخير من الأولاد أربعة إناث واثنين من الذكور، فوزية وتحية وأم السعد وآمنة بالترتيب، ثم رزقت بمحمد وعقيل، الذي اختارت كعب الخير له هذا الاسم!

ما فعلته ابنتها الكبرى فوزية من مكائد خفية وحقد دفين، نتج عنه فقدان رفيق عمرها، وذاقت المرض الطويل في آخر حياتها، وهجرها الجميع، ماتت وحيدة رغم كل من كان حولها، وشعرت أنها منبوذة وحيدة، كانت مثالًا صارخًا للنفاق المفضوح أو كما يقال: في الوش مراية وفي القفا سلاية. كانت امرأة عادية، تزوجت في القرية لكنها كانت متواجدة بشكل شبه يومي في دار أهلها، شعر الجميع بالأرق والقلق لمجرد رؤيتها، وربما أصابها نصيب من دعائي عليها لما لحقني منها من أذى، فترك الزمن أثره عليها باكرًا، لم يرتح لها قلبي منذ رأيتها ورأتني، وكانت ممن وقف في طريقي زواجي بابن أخيها دون سبب يذكر، إلا من حبها إظهار المساندة المزيفة لمواقف محمد مصباح المضطربة المعادية لآل طائع.

أما تحية فكانت النسخة الأصغر من فوزية في كل شيء، إلا أن الله رحم الجميع منها، تزوجت ابن خالتها في مديرية التحرير، واختفت تمامًا من حياتي، حتى أني كنت أتحاشى رؤيتها حين نزولها للقرية في كبرى المناسبات، أذكر أن الصدفة لم تجمعنا حتى نهاية عمرها إلا مرات لا تتخطى أصابع اليد الواحدة، حتى أنها قبل أن تموت بسنوات قليلة جاءت زيارة مفاجئة، ابتغاء طلب النسب، حيث

أرادت أن تزوج أخواتك لأبنائها، وطلبت لهم صورًا فوتوغرافية ولم أستطع ردها، فقد كانت ذات مهابة، وغيابها ثم ظهورها كل فترة أكسبها ندرة مغلفة بالوقار، من الصعب أن ترد لها طلبًا، كأنها كانت تأمر ولا يسعك إلا التنفيذ، لكن الحمد لله اتخذ أبوك موقف الرفض القاطع من مجرد التفكير في هذا النسب، فلم تزل مرارة وغصة في قلبه من كل موقف وقفه أحدهم في طريق أحلامنا سابقًا.

كما حملت كعب الخير في رحمها الشر متمثلًا في فوزية وتحية، حملت الخير متمثلًا في أم السعد وآمنة.

خلق الله أم السعد من طين ممزوج بالطيبة، وخلق آمنة من رمال الشواطئ البيضاء البكر النقية المشعة بالنور، هي الأقرب في الشكل والروح من أمها الرائعة، ظلت طوال عمرها تودنا وتحبنا، الحق يقال لم نر منها إلا الخير، وأم السعد غلبت عليها الطيبة التي عزلتها عن آل مصباح بمجرد زواجها، ذهبت إلى بيت زوجها بلا عودة وعاشت وماتت في سلام وهدوء، ولحقت بها آمنة، سبقتهما تحية، وآخر من لحقت بهن إلى الدار الآخرة كانت فوزية رغم أنها أكبرهن، أراد الله أن تشاهد كيف يكون قدر الله نافذًا لا محالة، فلا هي ولا جدك محمد مصباح يملكان من الأمر مثقال ذرة من تبديل قدر الله وقتل الحب الذي غرسه الله في القلوب، إنما هي أرواح تتلاقى، تتجاذب منها المتشابهة، وتتنافر منها المختلفة المضطربة.

حافَظ محمد مصباح على ميراثه من أبيه، وبالرغم من أنه لم يجتهد في زيادة رقعة الأرض المملوكة لآل مصباح قصبة واحدة، ولا حتى بناء بيت جديد يتسع لكل هذا العدد من الأبناء لاحقًا، حسبه أنه لم يبدد شيئًا، واعتقد الجميع أن سلوكه درب الموالد والتصوف سيكون سببًا في إفلاسه هو والعائلة، تعلقت روحه منذ الصغر بحلقات الذكر في القرى والكفور المجاورة، وحتى في المركز والبندر، الأضرحة في كل مكان حول البلد، والحديث عن خوارق الأمور التي يتناقلها العامة لا تنقطع، الجميع سمع لكن لم يرَ من رأى، جرت العادة في مصر أن الناس ترى بآذانها. ورغم دخول الكهرباء وانتشار الوعي مع النور والتلفاز في البيوت، ظلت كرامات الأولياء من أهم أسس تكوين العقل الجمعي للجماهير هنا.

يقبع في القرية المجاورة لنا مقام سيدنا نور الدين، صاحب الكرامة الأغرب، هو بمثابة المبعوث الإلهي للقاح والحمل وتعشير الحيوانات، لا نعرف سببًا حقيقيًا لأصل تلك الكرامة العجيبة، فقط إذا كان لديك بقرة أو جاموسة أو حمارة تتأخر في الحمل، ما عليك سوى السير تجاه ضريح سيدنا نور الدين مصطحبًا معك حيوانك المراد له التعشير، وتأخذ بحبله وتربطه في شباك المقام، وتبات ليلتك على هذا الوضع، حتى ما ألقت شمس صباح اليوم التالي بنورها فوق شباك المقام، تنهض مسرعًا لتفك قيد عقلك وقيد الحيوان، مسرعًا نحو عائلة بعلش، حيث لديهم كل أنواع فحول وذكور الحيوانات القادرة على تعشير حيوانات الفلاحين، ولا يدور

الحول إلا وقد وضع الحيوان عجلًا صغيرًا ببركة سيدنا نور الدين.
ومن المضحك المبكي أن التطور نال حتى الكرامة، فبعد سنوات تطور الوضع واقتصر على أخذ الحبل والقيد فقط دون الحيوان، والإلقاء به إلى جوار شباك نور الدين من داخل المقام، وفي الصباح تعود به، وهكذا دواليك، حتى أن الأمر لم يقتصر على الحيوان، تسللت نسوة ممن تأخر حملهن بسبب صغر السن إلى الضريح في أوقات الظهيرة، حيث لا حيوانات ولا بشر هناك، وقمن بالدعاء والتمسح والتضرع ببركة سيدنا نور الدين، القادر على نبش أرض الخصوبة عند الحيوان والإنسان على حد سواء، لا طب، لا علم، لا منطق، فقط سيدنا نور الدين. حتى الكرامات كانت موظفة لخدمة حاجات الفلاحين وبهائم الفلاحين.
ومن نور الدين إلى الشيخ عبد الجواد في البندر، ثم إلى سيدنا المسافر في قرية المسافرين بالجوار، الحديث عن الكرامات تجاوز كل محاولة للنفي، وساعد في ذلك أن الحمل والولادة كانت تحدث بالفعل ولو متأخرًا، ما عليك سوى تكرار الزيارة لضريح ولي الخصوبة الجنسية، ولكل ولي كرامة خص نفسه بها أو خصه الناس بها. فأنّى لمحمد مصباح أن يكون مريدًا مجذوبًا وراء الأولياء الأبعد؟ أليس الأقربون أولى بالمعروف؟
شيخان لا ينقصهما من الكرامات المروية بين أسماع الناس شيء، البلد تحت حماية صهوة جواد الشيخ الكبير، وبركة خضار عمامة الشيخ الصغير.

التقط محمد مصباح طرف الخيط بعدما تشبع في سنوات الصبى بالأوراد وسماع الأذكار، حتى أنه رغم أميته كان يحفظ عشرات الكتب الصوفية وعشرات الأوراد والأذكار شديدة الصعوبة والتراكيب والاصطلاحات الصوفية عن ظهر قلب، وجذبه الطريق وأهله بلا رجعة ليصبح في نهاية حياته حديث العباد والبلاد من حولنا، وحتى في ربوع المحروسة من وجه قبلي إلى بحري. ترك الأرض سريعًا وألقى بكامل الحمل على كاهل عقيل، الذي كان لها رجلًا بحق، رغم غيظه المبطون.

لم يثنِ أي عقاب أو حرمان أو ضرب مبرح متكرر من مصباح الكبير لابنه محمد مصباح عن أن يحيد عن طريق السعي وراء الشيوخ وأتباع الطرق، وسلك طريق المريدين، ولم يعرف له شيخ معين، رغم أنه كان رفاعيًا متصل العهد بالقطب الكبير.

أنشأ محمد مصباح مبكرًا خلوة في غرفة مميزة بمدخل البيت الكبير بعد باب الحوش الرئيسي، تطورت الخلوة مع الزمن وأخذت زخرفها، وتزينت بأعلام الرفاعية السوداء والخضراء، وعُلّق وسطها قرطاس طويل هو سند عهد الولاية المتصل، ووُضع في شباك الغرفة المطل على فناء الدار جهاز راديو صغير مثبت على إذاعة القرآن الكريم، وسرير بعمدان ملاصق للحائط، وفي مقابل السرير خزانة بدرفتين صُنعت في الجدار، كان لها قفل مغلق ومفتاح يحمله دائمًا معلقًا على صدره. وضع فيها محمد مصباح بعض الكتب

القديمة وقليلًا من المال وبعض أغراضه المتعلقة بالموالد وإظهار الكرامات في الاحتفال السنوي كل عام، كما خزن أسفل السرير ثلاثة أجولة، خصص اثنين منهما لعدد لا بأس به من السيوف الحديد غير الحادة مطلية بلون أخضر ولها يد خشب رخيصة، ومن بينهم سيف واحد مميز بجراب يبدو ثمينًا، بداخله سيف حاد لامع، كان له استخدامه في الزفة السنوية كل عام.

أما الجوال الأخير فتم حشوه بكم هائل من قماش الأعلام الخاصة بالطريقة، وقطع القماش المزركشة التي تستخدم للزينة في بقعة الذكر والحفل الثابت سنويًا. وعلى الأرض مقابل السرير وضع حصيرًا كبيرًا للجلوس، لا يفارقه منقد للنار في الشتاء، وربما حتى في الصيف لعمل الشاي، وصبغت رائحة الدخان كل شيء في هذه الغرفة التي زارها مئات الناس خلال حياة جدك، رحمة الله عليه.

شكلًا وموضوعًا استحق عقيل لقب "الإنجليزي"، حافظ على رشاقته حتى الآن، مستقل، كتوم، حريص، ذكي، ورغم أنه خرج من الصف الثالث الابتدائي ولم يكمل تعليمه، إلا أنه كان سريع البديهة في الحساب والجمع والطرح وكل ما له علاقة بالأرقام والمال، لذا عمل سمسار أراضٍ منذ شبابه، فلا فرق عنده في العمولة بين قريب وغريب.

مارس صفقات السمسرة والبيع والشراء إلى جوار عمله في وظيفة فراش في مدرسة البلد الابتدائية الوحيدة، كان عملًا سهلًا مستقرًا، مكنه من تطوير حياته خارج إطار الوظيفة، وقام ببناء بيت وشراء أرض خاصة، واستقل مبكرًا عن العائلة ومشاكل بيتها الكبير والصراعات الواهية المملوءة بالطمع والمكائد من أجل اللاشيء. ونسي الناس وانشغلوا عن سيرة وذكرى كعب الخير الأولى، وتسلمت أنا مسؤولية إتمام الحكاية على عاتقي لعل أن يكون لي من الاسم نصيب الذكرى الخالدة في النفوس.

انطوت صفحة وفُتحت أخرى جديدة تحمل نفس الاسم، كُتبت بحبر مخلوط بدموع العسر تارة، وضحكات اليسر تارة أخرى، لكنها حكاية جديدة مختلفة، لا أحد يشبه أحد، وأنامل الزمن موهوبة في حياكة التفاصيل. ربما اصطفاني الله من بين أبناء الجيل الثالث لنقل حكايات أمي وذكرياتها للجيل الرابع ثم الذي يليه، جاهدت نفسي في صياغة القصة دون إضافة أو حذف، اللهم إلا من بعض اللمسات الأدبية، وإن كان سماع الحكاية من أمي كعب الخير أكثر متعة، فقد كانت مفوهة حكّاءة، لذا توجب عليَّ الأمانة في حكي ما سمعته منها عشرات المرات، وشربت منه أرض صدري فأزهر فؤادي بمئات الألوان، صنعت منها قنينة عطر معبقة بذرات الذكريات والحب والألم والصبر والنور والكلام والصمت!

مهري كان مائة وخمسون جنيهًا فقط لا غير، مبلغ يعتبر قليلاً نسبيًا مقارنة بمتوسط المهور في البلد الذي تجاوز الثلاثمائة جنيه لبعض بنات البلد، ممن هن أقل حسبًا وجمالًا، لكن في سبيل الحب لا قيمة للمال وكل الاعتبارات المادية. لم أكن أرى أمام عينيّ غير أبيك، تعلقت به بشدة، وكلما نظرت في عينيه وجدتني أسبح في بحرين من الأماني، رغم قلة كلامه وتعبيره، أصابت سهام مشاعره وكل أحاسيسه فؤادي، وانصهرت روحانا، حتى لاحظ الكثيرون وأشفق علينا من يعلمون أن خلافات الآباء قد يدفع ثمنها الأبناء، فراقًا وحرمانًا وعذابًا مغلفًا بالأمل.

تمسكنا بالحب وأعجب القدر بالمقاومة التي أظهرها كلانا بشكل سلمي لا يخلو من تمرد.

لم تقف خديجة الكبرى صفر اليدين، بل دعمتني بقوة حين وصلت الأمور إلى مرحلة اللاعودة. كانت دائمًا الدعم والسند، ومن أمامها محمد مسالم طائع. دفعت أمي فوق المهر مهرًا، وجاء لي على كل هذا ثلاث أساور من الذهب عيار واحد وعشرين، ودولابًا خشبيًا بثلاث درفات لم يحمل الكثير من الأثواب، وسريرًا بعمدان من الحديد والصاج لم يطل عمره مما رأى من فرط الحركة وتقلبات الزمن، وصنعنا غيره من الخشب لاحقًا. وباقي الأغراض انحصرت في طست نحاس كبير كنا نستحم فيه، وآخر صغير لغسيل الملابس، وثلاثة أوانٍ لطهي الطعام لم تتصاعد منهم أبخرة الطهي إلا بعد

قرابة خمس سنوات، حين تصاعدت المشاكل بيني أنا وأبيك وبين آل مصباح، وعلى رأس العصابة جدك محمد مصباح، الذي وضع مسارًا إجباريًا لحياتي مع أبيك، ورب ضارة نافعة. بالإضافة إلى ستة أكواب، وستة ملاعق ألومنيوم، وطقم أكواب شربات ألومنيوم كذلك، ومرتبة، ولحاف من القطن، ووسادتين من نفس القطن.

كان هذا ما يسمى عزال أو متاع العروسة أولًا عن آخر، لم يكن على قدر المقام، لكن هذا ما تعمده آل مصباح، الله لا يسامح أحدًا منهم. جرت العادة، كما جرت الكثير من العادات في البلد، على أن يتم وضع عزال العروسة البائس هذا فوق عربة كارو يجرها حصان مزين ويدور في البلدة وحولها، كنوع من الإشهار وإعلان الفرحة والفرجة، وكأنهم يفرجون الناس على خيبتهم.

دار الحصان في البلدة وأعلن الزواج رسميًا فيما عرف بيوم الحنة، وهو اليوم الذي يسبق يوم الدخلة مباشرة، وفي نفوس الناس من هذا الحب ما الله به عليم، وحرقت الغيرة الكثير من الأفئدة بزواج كعب الخير طائع وراضي مصباح.

أما سكن العروس فكان في مقعد، أو غرفة واحدة في الدور الثاني، وكان مقعدنا فوق حجرة محمد مصباح مباشرة، كل واحد يتزوج ينال مقعدًا إلى جوار أخيه، وخلف باب كل مقعد حياة كاملة يتم رسم مستقبلها بانتزاع لحظات من السعادة والفرحة المكتومة عن المقعد المجاور، وإن كانت أصوات المعاشرة والضحك تتفلت

هاربة من شقوق الجدران أو من أسفل عتبات الأبواب الخشبية. وكان صرير الأسرة الحديدية ذات الأعمدة يفضح كل حركة فوقها، وأثار ذلك حفيظة ساكني الدور الأول، حتى قالت جدتك فهيمة لأبيك: "قل لقليلي الحياء اللي فوق أن يراعوا أن الدار بها عُزاب."

كان هذا الزواج بعد وفاة أبي بثلاث سنوات تقريبًا. خلال عشرين سنة زواج بين فهيمة سعفان ومحمد مصباح، أنجبت عشرة من الأولاد، لم يمت منهم إلا واحدة.

تزوج من فهيمة وهو ابن الخامسة والعشرين، كان يكبرها بخمس سنوات تقريبًا، وكان سنهم كبيرًا نسبيًا للزواج مقارنة بأعمار الزواج في البلد، فلم تكن فهيمة على قدر عالٍ من الجمال، كانت عادية تمامًا، وكانت ضعيفة البنيان رغم إنجابها هذا العدد من الأولاد. أما جدك فقد شغله السعي وراء ليالي الذكر والموالد والاحتفالات حيث وجد ذاته ومتعته فيها، ولم تكن العلاقة بينه وبين فهيمة علاقة حب، إنما فقط عشرة ومعاشرة.

رغم ذلك لم تترك بيتها يومًا غاضبة، وأدركت أنها واقعة بين مطرقة محمد مصباح وسندان آل سعفان، وعلى رأسهم ابن أخيها حودة سعفان، الذي كان كبير عائلة سعفان على صغر سنه. تزوج مصباح بعد إلحاح من أبيه وأمه قبل وفاتهما، خشية أن يعيش ويموت دون ترك أثر في الدنيا، بينما حدث العكس تمامًا.

سعد محمد مصباح كان أصغر أبناء فهيمة حين دخلت بيتهم، أظنه لم يتجاوز الرابعة من العمر حينها، وجاء ترتيبه بعد سعد، سمر، عبد الرسول، عبد المولى، نوال، نعمات، رجب، وأبيك راضي، ثم أكبرهم حواء، وماتت أنثى لا أذكر ترتيبها بين هؤلاء.

تقول جدتك فهيمة: "كنت سنة حبلى وسنة مرضعة." ثم قالت كما قالت خديجة الصغرى: "لم يكن هناك ما يمنع الحمل."

خلق الله الشقاء، وجعل النصيب الكبير من حظ حواء مصباح، كانت أول من تزوج من أبناء محمد مصباح عند عائلة عماشة،

وكانت هذه العائلة ممن ابتلاهم الله بقدر هائل من الغباء وإلغاء أي فضيلة للعقل، فقط أكل وشرب وخلفة، حتى أن البلد كان منتشرًا فيها مقولة معروفة يتندر بها الخاصة وكبار رؤوس العائلات بشكل ساخر، قائلين: "العمايشة قدامهم مائة سنة حتى يصيروا بهائم."

ولعلك تخيلت أين وضع القدر حواء مصباح، وعلى هذا لم تتذمر، ولم تعرف معنى التمرد طيلة حياتها، وماتت من الشقاء في حياة أبويها وهي على مشارف الخمسين. أظنها كانت بنفس سن خديجة الصغرى أو من نفس الجيل. عاشت في شقاء وماتت غريبة عن الجميع، ولم يطل الحزن عليها من آل مصباح وآل عماشة فوق ثلاثة أيام، إلا أن زوجها لم يتزوج بعدها، وعاش بعدها طويلًا. تركت له أربعة ذكور وبنتًا وحيدة، طالما تذكروا سيرتها بالخير والحزن. لم يعنهم الزمن على راحتها ولو قليلًا قبل موتها، فلم يكن شأنهم قد علا بعد، وتركتهم صغارًا ضعافًا.

العدل أمر مرعب للكثير من الناس، ومن العدل أن يُسقى كل ساق بما سقى، كما تدين تُدان، وما فعله الآباء مع الأجداد، يفعل الأبناء مع الآباء ما هو ألعن منه.

تجسد هذا المعنى في رجب مصباح، كان نموذجًا للانتقام والتمرد، بسبب أو بلا سبب، دائم السخط على الجميع، لا يستطيع أحد، مهما حاول، أن يتعايش معه فوق السنة الواحدة دون خصام أو خلاف أخلاقي وفجر بيّن في الخصومة. نفث كل همه في السجائر، ومع الأيام تحول لمدخن شره بشكل ملفت، كان يسب أباه وأحيانًا

فهيمة رغم حبه الشديد لها، مع ذلك كله تمتع برقة قلب عجيبة، كان حزنه وفرحه وليد كل لحظة يتأثر بها بحالة موت أو فرح، ولم تبصر عيناي رجلًا حزن على موت أمه حين ماتت كما رأيت حزن رجب على فهيمة سعفان. قد يكون رجب بحث طويلًا عن السعادة والحنان، ولم يجدها في النساء، ربما لم يكن يعرف هدفه في الدنيا، فهام على وجهه في الغربة عشرين عامًا مع أخيه، بعد أن طلق عزيزة عماشة، الأخت الصغرى لزوج أخته حواء، طلقها عشر سنوات بتحريض وغيرة من أخواته البنات العقارب. كان يصفها بالجاموسة منعدمة العقل، ولم يشفع لها طيب قلبها عند صلابة قلبه، الذي تحجر من القسوة بفعل كثرة الوشاية والحقد والغيرة. ولم ينفعه الندم ذات يوم أن يعوضه ماله الذي بدد على الهدايا والحوالات التي أرسلها لبيت العائلة طيلة سفره للخارج، ولا عن طفله الذي طلق أمه وهو رضيع دون الستة أشهر. تملك منه شعور الظلم حتى تحول لمسخ، ولم يعترف أحد له بجميل أو حتى شعور بالامتنان.

جاء زواجه بعد أبيك مباشرة، وطلق عزيزة قبل أن يدور على الزيجة الحولين، دفعة التمرد للسفر للعراق، ومنها إلى السعودية، واستقر به الحال في الأردن الفترة الأطول والأفضل.

أما نعمات، فهي قنبلة الضحك والسخرية غير الموقوتة، لم نجلس معها ذات يوم إلا ودمعت عيوننا من شدة الضحك والسخرية. كانت تتميز بحس فكاهي ممزوج بجرأة لا ترى أي اعتبار اجتماعي من أي نوع، محور سخريتها الأعظم هو الفقر والجوع الذي عاشت

فيه صغيرة بين آل مصباح، حتى أنه كان لها طرفة مشهورة، كلما أراد أحد منا أن يفتح صنبور سخريتها، يقول لها: "يا نعمات، احكي لنا كيف أن عائلة مصباح كانوا يقسمون عليكم حبات الأرز؟!"

فتنطلق باسمة بقدر لا بأس به من السب واللعن فيهم وفي جوعهم وفقرهم الذي أجبروا أنفسهم عليه، ثم تنطلق ضاحكة في حكايات لا تنتهي. كانت حكايات مضحكة مبكية، ضحك الجميع من الألم الذي أسكنه الماضي في حجرة مظلمة في قلوبهم.

تزوجت نعمات بعد حواء مباشرة، أنقذها من أهلها الزواج من موظف ذي شأن، كانت على قدر من الحسن اكتمل بروح الفكاهة التي عشقها فيها زوجها لاحقًا، إلا أنها كانت متعلقة بآل مصباح تعلقًا شديدًا حتى آخر حياتها، وأنجبت له سبعة من الذكور وبنتًا واحدة!

تزوجت نعمات قبل أبيك، رغم أن راضي أكبر منها، لكن لا يمكن تأخير زواج بنت على حساب ولد. على كل حال، تزوجت أنا وأبيك بعد نعمات، وتزوجت نوال بعد ذلك بسنة واحدة.

نوال التي انفطر على حبها قلوب عدد لا بأس به من شباب القرية، من بينهم أخي عليوة. لم تكن نوال شديدة الجمال بقدر ما هي شديدة الجاذبية، يراها الكثير من الرجال نوعهم المفضل من النساء. ساعد قوامها الملفوف في أخذ النظر، ووجهها المستدير صاحب التفاصيل المتسقة التي تشع بنوع من الجاذبية لا يمكن

تفسيره. وسبحان الله أن النصيب انتهى بها إلى رجل متزوج وله ابن من زوجته الأولى، لكن نوال فتنته فترك كل الدنيا وراء ظهره، ولم ير من الدنيا بد غير أن يحظى بها، حتى وقعت هي الأخرى في حبه بالأخير، وعاش معها سعيدًا حتى الآن، وكنا نسمع أنه لا يرفض لها طلبًا أبدًا، رغم أنه رجل ممن يبدو عليهم الحزم والشدة مع الناس!

هجرته زوجته الأولى من فورها بلا رجعة إلى يومنا هذا، ومع الإلحاح بالطلاق، نفذ الرجل الأمر على مضض بعد سنة واحدة من زواجه بنوال، لما رأى الأولى لن تتقبل الأمر ولو بعد ألف عام، فقد علمت أن نوال استأثرت بقلبه للأبد، فلم تكن من النوع الذي قد يقبل بضرة أو مشاركة. أنجبت نوال ثلاثة ذكور وبنتًا واحدة، ولم يكن غير الزمن وحده كفيلاً بكسر شقاوتها ودلعها وإثارتها، رغم خلافي الشديد معها وفجرها في الخصومة معي بشكل مستمر طوال فترة الشباب، إلا أنه كما يقال: "تموت الوردة وريحتها فيها." وتزوجت سمر قبل من تبقى من الذكور: عبد المولى، وعبد الرسول، وسعد. استقر بهم الحال بعد الزواج في بيت أبيهم حتى كبر أبناؤهم، ولم يكونوا صداميين بالشكل الذي مكنهم من أن يميزهم محمد مصباح في الميراث، كتب لكل منهم قيراطًا من الأرض لبناء بيت مستقل، مما أثار حفيظة راضي ورجب اللذين خرجا من البيت بين مطرود ومتمرد، رغم أنهما الأكبر سنًا. تدخل الشيطان مبكرًا بين أبناء محمد مصباح، وقد ساعده الرجل نفسه في تمييز بعض الأبناء على بعضهم.

رغم الفشل والفقر استطاع عبد المولى وعبد الرسول وسعد، تحصيل شهادة الدبلوم الفني الصناعي، مما مكنهم من الحصول على وظائف حكومية، بجوار العمل في أرض آل مصباح تارة، وأرض العمدة باليومية تارة. وجدوا في ذلك استقرارًا نسبيًا وأمانًا وظيفيًا جعل فكرة الهجرة والسفر للخليج غير مغرية بالنسبة لهم، مثلما كانت لأخويهما الكبيرين.

آخر من تزوج هو سعد، وعاش حياة شبه مستقرة، كما الحال مع عبد المولى، بينما أراد القدر مداعبة لغة البكاء في حياة عبد الرسول، بعد عشر سنوات من زواجه تقريبًا، أنجب خلالها محمد وأحمد وهبة التي كانت في نفس عمرك. ماتت زوجته بهية بعدما فشل الأطباء في إجراء جراحة قلب مفتوح لها.

قالوا حينها إن بهية قد ماتت بمجرد أن شق الأطباء صدرها، لم تتحمل، وتوقف قلبها على الفور. كانت الحالة متأخرة، والطب ليس في أفضل حالاته، والفقر مسيطر وحائل دون السعي المبكر للتشخيص والعلاج. تيتم الأبناء مبكرًا، وتزوج عبد الرسول مرة أخرى بعد صبر خمس سنوات على فراق أم أبنائه، أدرك أنه سيبقى وحيدًا في نهاية المطاف.

تزوج مطلقة تصغره بعشر سنوات من بلدة ليست ببعيدة عن بلدتنا، وأنجب منها عبد الله وعبد الرحيم.

قضيت ست سنوات من عمري بين آل مصباح، خمس سنوات دون إنجاب، وفي السنة السادسة رزقني الله أختك نورا. كنت صغيرة، تزوجت دون الخامسة عشرة، أضف إلى ذلك أن راضي خدم في الجيش ثلاث سنوات بالتمام في عهد السادات، منذ أن طلبوه للتجنيد بعد زفافنا بشهر واحد. حملت بعد عودة والدك بعامين، عانيت خلالهما من الغمز واللمز والمعايرة طوال الوقت بعدم الخلفة من عماتك وجدتك فهيمة، وأحيانًا جدك محمد مصباح بنفسه. سمعت مما يسمم البدن أطنانًا من الكلام والتلقيح والتلميح والتصريح.

وذات صباح لم تطلع له شمس، قالت فهيمة أشد عبارة قاسية قد أكون سمعتها في حياتي:

"لو أننا اشترينا جاموسة بنعلفها كانت عشرت وولدت."

هدأت البلد نسبيًا عقب النصر بسنوات قليلة، وأطل العهد الجديد على البلاد والعباد، وتطلع الناس للهجرة، ومن بينهم قطاع كبير من شباب القرى والنجوع. جاء عصر الانفتاح وانتهت الحروب، وتطلع الجميع لمستقبل أفضل، وأصبح السعي وراء الأموال الغاية الأولى لهذه الحقبة، على حساب الكثير من الأشياء، وقد مسنا ما مس الناس.

دب الرعب ذات يوم في قلب الجميع حين طرق صبحي الغفير باب البيت الرئيسي بقوة، وأتبع ذلك بنداء غليظ بحشرجة صوته

الملبدة من أثر شرب الدخان، ونادى: "يا أبو مصباح... يا آل مصباح."

خرج محمد مصباح بنفسه مرتديًا قميصه الداخلي، وصرخ في صبحي: "ما بك؟ أتظن نفسك تطرق باب زريبة؟"

أجابه صبحي: "لا مؤاخذة يا أبو مصباح، المركز عايز راضي، باعتين ورقة، يحضر بكره الصبح بدري قدام بيت العمدة، هناخد كل المطلوبين نسلمهم في المركز، ابنك متخلف عن التجنيد."

كان راضي يظن أن دوره في الجيش قد فات، ولن يسأل عنه أحد، لكن دخول أخيه الأصغر رجب للجيش، لفت الانتباه، والتحق فعليًا بالخدمة وهو ابن اثنين وعشرين سنة. وبما أنه الابن البكر لمحمد مصباح وفهيمة سعفان، وقبيل التحاقه بمركز التدريب، عرضوا عليه عدد لا بأس به من بنات القرية الصالحات للزواج، وأثار رفضه الدهشة لهن جميعًا: علوية بنت الشين، وعزة بنت عمرو أفندي، وليلى بنت أحمد الملاح.

قال راضي: "من أراد منكم الزواج بإحداهن فليتزوجها هو، ويأخذها تنام في حضنه. لن أتزوج غير واحدة سوف ترفضون زواجي منها، ولكني لن أتزوج غيرها. كعب الخير."

كان مسالم طائع قبل وفاته قد أوصى محمد أخي، وحذره من زواجي عند آل مصباح، قائلًا:

"حذار يا محمد أن يضحك عليك أبو مصباح، وياخد أختك."

فلم يكن يعكر صفو مزاجه، ويشتت سحابة دخان حجر المعسل خاصته غير سيرة الخلاف بينه وبين محمد مصباح. ورغم الخصومة بينهما حتى آخر لحظة في حياة أبي، طالما تمنى محمد مصباح انضمام مسالم لحلقته السنوية الخاصة بمولد الشيخين، لكن مسالم لم يجد الراحة إلا في حلقة ذكر المنافس الشرس لمصباح، وعلى هذا، وإلى يومنا، انقسمت البلد شطرين من المريدين والدراويش. ولم يجد محمد مسالم مفرًا من أن يسأل الوالد وهو على فراش المرض الأخير: "وماذا لو غلب النصيب الوصية؟"

رد مسالم، وكأنه تمنى ألا يدخل في جدال ينبش به خلافًا قديمًا يحرك في قلبه ضغينته لآل مصباح، بينما هو يعلم أنه ملاق ربه بعد ساعات، وأراد أن يلقى الله بقلب سليم.

قال دون رضا كامل عما نطق به لسانه: "أنت حر يا محمد يا ابني، الأمر كله لله."

بعد وفاة مسالم طائع بثلاث سنوات، وفي اليوم الذي حصل فيه الاتفاق ودخل محمد مصباح بيتنا، جاء مسالم طائع غاضبًا.

رأيت قبيل الفجر، فيما يرى النائم، مسالم طائع واقفًا أمام باب الدار، معقود الجبين، محتجًا كأنه يأبى الدخول، وبين يديه عصاه يقبضها ويدب بها في الأرض محتجًا: "هاااا... هااااااا... هاااااا."

وأنا واقف أمامه في صمت وتردد، وأطبق الخوف على صدري، وانعقد لساني من عدم قدرتي على تنفيذ ما وصى به. ظل هكذا حتى ضاق صدري وكدت أختنق في نومتي، حتى استيقظت أتنفس الصعداء وأنا أقول: "نصيب.. هعمل إيه.. نصيب."

حكى محمد أخي هذه الرؤية مرة واحدة في حضرة خديجة الكبرى، لكن سبق السيف العزل، وانقضى القضاء، ونفذت مشيئة الحب فوق إرادة آل مصباح على الجانب الآخر، الذين قالوا لراضي: "لو أن السماء انطبقت على الأرض، لن تدخل كعب الخير بنت عائلة طائع دارنا."

فذهب مغاضبًا، لا يقدر عليه أحد، وتمرد على فكرة الزواج بكل ما تحمله من مقترحات وترشيحات وإغراءات جانبت هوى الفؤاد.

لو أن راضي أشار إلى واحدة غيري، مجرد تلميح في رغبة، أو زَيغ ومَيل عن الهوى، كان تزوجها مهما كلف الأمر آل مصباح، في سبيل إعطاء طعنة أخيرة للحب بيننا، الذي انفضح أمره بين الجميع، وأضحى حديث العائلتين. لكن الأرواح كانت مرسال القوة والثبات على الإخلاص، ورفض كل ما هو تقليدي.

لم يُنقذني من الزواج بناصر العربي بالإجبار إلا قول أخي عليوة لخديجة الكبرى، اليوم الذي سبق مرسال آل مصباح. لما ذهب راضي إلى الجيش في أيامه الأولى، جاء ناصر العربي برفقة أبويه لخطبتي، أرادت خديجة ومحمد مسالم قبول هذا العرض، ووضعني هذا في أول اختبار حقيقي لمشاعري ومقياس صادق لقوة تمسكي بحب راضي، وربما أرادوا التأكد من أمر الحب هذا وإن كان له مخرج، ظانين أنها نزوة مراهقة سوف تنتهي وتتلاشى من الذاكرة مع أول عريس جيد يتقدم لطلب الزواج. رغم قوة وتسلط خديجة ومن ورائها أخي، والعرف السائد بإجبار البنات على الزواج دونما مشورة، إلا أنهما لم يفعلا ذلك، ويبدو لي الآن أن ما مرا به من تجارب وضعهم موضع المتفهم للأمر، المتقبل للحب وانسجام الأرواح، جميع الناس قد عرفوا الحب، منهم من ذاق ومنهم من عرف ومنهم من يبحث حتى آخر العمر.

ما أجمل الحب حين يأتي مبكرًا، تنسى به كل الناس وتنشغل عنهم بمن تأنس به ويمسي توأم الروح.

لم يخلُ الموقف من الشدة والتهديد المبطن، الذي يفرضه المظهر الاجتماعي وكلام الناس في قرية الشيخين، وتناقل الأخبار كان المتعة الوحيدة لمعظمهم. رغم الشد والجذب والتفاوض، أبيتُ إدخال صينية الشاي وتقديمها لناصر العربي ومن جاء معه أو حتى إلقاء

التحية، كان القرار حاسمًا وقاطعًا، ولم يُثنني الخوف عن التمسك بحبي. قلت لنفسي: لن أتزوج غير راضي مصباح مهما كلفني الأمر.

لم يقدر أحد على إجباري، لكنهم فعلوا ما هو أسوأ، حين تحدثوا بعد مغادرة ناصر، بصوت مسموع أن الاتفاق قد تم، وموافقتي من عدمها لن تغيّر من الأمر شيئًا، كان هذا ظاهر الأمر!

في الباطن، غلبت حكمة خديجة جبروتها، وأرادت التثبت من الحب للمرة الأخيرة، وجاء الفرج بعد الشدة حين سألتني، بعد مغادرة الضيوف، وقد اجتمعت الدار قبيل النوم لمناقشة أمر عريس الغبرة.

سألتني عن رأيي في العريس، لم يكن في فمي من الكلمات ما يُعبّر عن الرفض، كأنما شلل تام قد دبّ في كل أوصالي من الحزن، والخوف من قتل الحلم الصغير.

أنقذ عليوة الموقف، وإن كانت المصلحة هي التي دفعته، لكنه كان يريد أن يتم النسب بيننا وآل مصباح ليقرب المسافة من هدفه بالزواج من نوال مصباح، أراد أن يرد اللقمة لنفسه كما يقولون.

قال عليوة: "يا أمي، والله العريس دا بيسرق ذرة وبيض، وبيشرب سجاير، وبيضرب أمه."

قال جملته وسكت، وأنقذني بها من الغرق في بركة آسنة. يرتكب هذا العريس أكبر ثلاث موبقات تبغضهم خديجة: السرقة، شرب السجائر، وعقوق الوالدين.

قالت على فورها: "نقول لهم في الصباح الباكر، كل شيء نصيب، لأنهم قالوا غدًا يبيعون بقرة ويقبضوننا المهر مباشرة."

وصل دخان خبر الليل آل مصباح، وتحركت فهيمة تدفعها مشاعر الأمومة، خشية انكسار قلب ابنها للأبد، فأسرعت بإرسال أميرة، الأخت الكبرى لحودة سعفان، وكانت أميرة بحق صافية الفطرة ممتلئة البدن، وجدناها قرابة العاشرة صباحًا في دارنا تحمل رسالة من فهيمة لخديجة، مفادها رغبة راضي في خطبة كعب الخير. وكان محمد مصباح قد وافق على مضض، ولعل موت أبي كان مما خفف من حدة رفض محمد مصباح لهذا النسب.

بعد السلامات والتحيات والترحاب، بدأت أميرة بالكلام، بشكل مباشر دون لفّ ودوران:

"يا خديجة، إحنا عايزين كعب الخير لراضي ابن عمتي فهيمة."

وردت عليها خديجة: "موافقون."

أنهت أميرة هذا الحوار القصير بزغرودة، تبعتها بعبارات التهاني والمباركة، ثم رأيناها تهرول تجاه دار آل مصباح لتزف البشرى لعمتها. تنفست خديجة الكبرى الصعداء بمرسال أميرة سعفان، فقد أوقفها هي وأخي، ما نقل عليوة من أمر ناصر العربي.

حقًا، تدبير الله فوق كل تدبير، وما كان لنا من حيلة أنا وراضي سوى المقاومة والصبر المشوب بقلق الترقب والأمل فيما ستحمله لنا الأيام من خير.

في اليوم الثالث، جاء آل مصباح للاتفاق: محمد مصباح، وأخوه عقيل، وفهيمة.

استقبلنا ثلاثتهم، ورحبت بهم خديجة ومن ورائها محمد طائع، ودار حديث مسموع شهدته غرفة الضيوف، استرقت السمع لمعظم ما قيل أثناء تحضيري للشاي المصحوب بالفرح والقلق والدموع.

كسر محمد مصباح حاجز الصمت:

"إزيك يا خديجة؟"

"إن شاء الله تسلم يا أبو راضي، حصلت البركة."

كاد الصمت أن يسود، فأردفت فهيمة:

"الظاهر ربنا بيحبنا، لن نحرم من اسم كعب الخير في دارنا."

أظهرت خديجة تماسكًا وثباتًا لا بأس بهما، وقالت:

"اللي فيه الخير يقدمه ربنا، لم يكن هناك من يضاهي طيبة وأخلاق وجمال أمكم."

وكأنما أرادت خديجة بذلك إيلام محمد مصباح.

قطع عقيل كبرياء أخيه بطلب يد كعب الخير، وتحدث نيابة عن آل مصباح:

"بعد ما تسمعونا الصلاة على النبي، إحنا طمعانين في نسبكم، عايزين كعب الخير لراضي ابننا، إيه رأيكم يا ست خديجة أنتي وأبو مسالم؟"

بعد نظرة خاطفة ذات معنى تجاه محمد مسالم، قالت خديجة:

"دا إحنا نكسيها ونجيبها لحد عندكم، أهم حاجة رأي أخيها. إيه رأيك يا أبو مسالم؟"

تساءل عقيل، فأجاب أبو مسالم:

"والله يا عم عقيل نتشرف بيكم، ويكرم الجميع من أجلك."

فقال عقيل:

"ربنا يبارك فيك يا ابن الأصول."

خلال ثوانٍ، تحركت خديجة إلى الداخل، معطية إذن دخولي بالشاي.

"مساء الخير"، ألقيتها فقط دون غيرها، ووضعت صينية الشاي، وقد علت حمرة الخجل وجنتيّ. أنقذتني فهيمة حين أقبلت تجاهي قائلة:

"ما شاء الله تبارك الله، منورة يا عروسة ابني."

وجذبتني للجلوس بجانبها، فقال أخي:

"شكرًا يا كعب الخير، تسلم إيدك."

في إشارة منه تلقيتها مسرعة بالانصراف. كأنما قد جاء لإفساد الأمر، قال محمد مصباح دون مقدمات: "سندفع مائة وخمسين جنيهًا مهرًا، لا فوقهم ولا تحتهم."

ساد الصمت للحظات، ولم يجد عقيل ما يستر به عري كلام أخيه، لأن السائد في البلد والطبيعي أن أقل مهر عروسة مائتي جنيه، وأغلى واحدة لا تتجاوز أربعمائة جنيه.

على أنه رغم ذلك، هناك من تزوج بثمانين وتسعين جنيهًا مهرًا، لكن هذه كانت استثناءات المعدمين في القرية، والوافدين والأغراب.

أدركت خديجة بسرعة بديهة، أن محمد مصباح جاء الليلة في محاولة بائسة لإفشال الزواج، وإلقاء مسؤولية الرفض في ملعب آل طائع، فردت الكرة في ملعب مصباح:

"موافقون. ولا إيه رأيك يا أبو مسالم؟"

أجابها:

"اللي انتي شايفاه يا أمي."

رفع عقيل كفيه نحو السماء قائلًا:

"الفاتحة لله أن يتمم لهما بالخير."

تبع قراءة الفاتحة زغرودة من فهيمة.

لم يشأ محمد مصباح أن تنتهي الجلسة ولم ينجح بعد في تعكير الصفو، فقد ترك مسالم طائع في حلق مصباح غصة بمقاطعة حلقة الذكر السنوية الخاصة به، لصالح العجمي المنافس الأوحد لمصباح في القرية.

راود محمد مصباح شعور طوال عمره بالاستحقاق المكتسب دون غيره في إقامة المولد والاحتفال، فهو المجذوب نحو آل البيت، وهو المشار إليه بالبنان من الشيخ الكبير بالرؤى والقصص والإشارات الربانية بإقامة الاحتفال، ولم يكن يرى غير أن العجمي دخيل على المهنة، طامع في إيراد ما تجمعه صناديق النذور في مقام كل شيخ، هو والمحاسيب الذين طالما أطلق عليهم "حرامية الصندوق"، أو "شيوخ الصندوق" على أقل وصف من الإهانة.

أخفى محمد مصباح في جعبته كتبًا عن التصوف وآل البيت، يخرجها من قميصه الداخلي، يعطيها لقارئ يتلعثم في قراءة مفردات الكتابة الروحية، بمفرداتها القوية المسجوعة بالأوراد والتراكيب غير المفهومة، في استعراض لقوة حفظه وفهمه للكثير من الكتب، رغم أميته بالقراءة والكتابة.

بعد قراءة الفاتحة، أخرج من صدره بخفة ساحر كتابًا صغيرًا على صفحاته أثر الزمن، وأمر محمد أخي بالقراءة، وما فعل ذلك إلا لعلة في نفسه.

لكن ما أثار حفيظته أكثر، قراءة أخي السلسة غير المتلعثمة، التي أفقدته غايته من وضع محمد مسالم طائع موضع الإحراج، ولم يجد محمد مصباح بدًا من الثناء على قراءة وفهم ابن مسالم طائع: "نِعم الخلف لخير سلف."

وبالتالي كان يطمع ويطمح دائمًا أن ينضم لمعسكره رجل بنقاء وصفاء فطرة محمد طائع، هذا عرض قدّمه له دون مواربة بأن يغير درب أبيه وينضم لمعسكر آل مصباح السنوي.

إلا أنه امتعض بشدة من رد الرجل عليه بأن هوى نفسه لا يجتمع مع حلقات الذكر والموالد.

فسحب من بين يديه الكتاب قائلًا: "أول ما راضي ينزل إجازة من الجيش، نيجي نقرأ الفاتحة تاني، واللي فيه الخير ربنا يقدمه، سلام عليكم."

لاحقًا حكى لي راضي أنه في نفس ذات الليلة، رأى فيما يرى النائم البشرى التي سافرت نفسه لتحملها إليه من عالم الغيب.

"وجدتني مستلقيًا ليلًا على شاطئ البحر، وقد انعكس نور القمر فوق ذرات الرمال ناصعة البياض، وطرب سمعي بأصوات الموج الهادئ، وفجأة قفزت نحوي من الماء سمكة، فوجدتها بين يديّ، فابتهجت نفسي وسكنت روحي."

استيقظت وأنا أردد بصوت خافت، كأن ملاكًا يهمس في أذني: "الحمد لله... الحمد لله."

بعد ثلاثة أيام، تقابل الأخوان راضي ورجب في الإسكندرية، الأول كان عائدًا إلى القرية في إجازة من الجيش، والثاني كان ذاهبًا إلى حيث غادر أخوه، كلاهما كانا يقضيان خدمتهما العسكرية في السلوم بالقرب من الحدود الليبية.

جمعتهما الصدفة في محطة القطار، وفي المحطات الناس دائمًا على عجلة من أمرهم، فلم تستغرق البشرى التي حملها رجب لراضي سوى ثوانٍ معدودة، وعانق أخاه مبتسمًا وهو يقول: "واد يا راضي، خطبوا لك البت بنت مسالم طائع اللي بتحبها."

تركه رجب مسرعًا، فتثبتت قدماه في الأرض، وشعر أن روحه لم تتحمل الفرحة فسبقته إلى القرية، وقضى الطريق كله هائمًا لا يرى الناس من حوله، والقطار بين محطة وأخرى بطيء كأن الزمن لا يمر.

غلبت الفرحة الزمن ولم تسعه الدنيا، وليس بينه وبين التحقق من صدق البشرى التي حملها رجب غير أن تطأ قدماه أرض البلد، وقد كان.

مرة أخرى، قرأنا الفاتحة بشكل رسمي في اليوم الذي وصل فيه راضي، وسط جمع من أهل العائلتين، أراد راضي التعبير عن فرحته بتقديم هدية بسيطة، لكن منعه الحياء وسط هذا العدد من الناس الذين استحالت معهم الخصوصية.

فوجدت سعدية زوجة أخي، رحمة الله عليها، الهدية بين أقدام المعازيم (إشاريين) غلفهما راضي بورق مزين بالورود، وتركهما على الكنبة بعدما انقلبت غرفة الضيوف إلى سيرك صغير من الهرج والفرحة بعد إتمام الفاتحة.

فهمت سعدية الأمر وأعطتني الهدية، دون النطق بكلمة واحدة، اللهم إلا من ابتسامتها البريئة.

وحدثني راضي لاحقًا عن الأمر، شعرنا أننا وُلدنا اليوم وبين يدينا النجوم نلمسها، ومن وراء السماء تُخفي الأيام الكثير.

لم تتجاوز فترة الخطوبة الشهرين، نزل إجازة واحدة، والإجازة الثانية حددنا يوم العرس ودخلنا.

كان احتفال آل مصباح السنوي بمولد الشيخين من أكثر ما أثار دهشتي وفضولي في بيت آل مصباح، فبالرغم من أن الشيخين لا يجتمع ميلادهما في اليوم ذاته، إلا أن الاحتفال بالشيخ الكبير كان الأدق والثابت وأخذ تحت كنفه الشيخ الصغير، حتى تطورت الأمور وتحسَّن حال القرية وأهلها مع مطلع الألفية الجديدة، حينها تكفَّل الحاج حماد بإقامة احتفال مولد خاص للشيخ الصغير، بعدما قيل إن زوجته وابنته رأوا ما فسره الناس وقتها أن الشيخ الصغير دخل بيتهم وهم جلوس ولم يستطع أحدهم التحرك من مكانه ولا حتى النطق بكلمة، وحين دخلوا البيت بعد دقائق من انقضاء الدهشة وراء هذا الرجل صاحب العمامة الخضراء الكبيرة والثياب ناصعة البياض حسب وصفهم، لم يجدوا له أثرًا بالبيت، فسر الجميع الأمر وأولهم حماد أن الشيخ الصغير يرغب في الاستقلال باحتفاله عن الشيخ الكبير، وأنه قد اصطفى حماد لهذا الفعل، مثلما اصطفى الشيخ الكبير محمد مصباح.

فلم يلبث حماد إلا أن نفذ الإشارة الربانية في نفس العام، واستمر في إقامة الاحتفال في موعده البعيد عن موعد الكبير، إلى أن توفاه الله.

أقيم الاحتفال بالشيخين في شهر أبريل من كل عام في الساحة المتسعة الواقعة بين بيت خديجة الكبرى وبين المقابر والأضرحة، سميت كذلك بساحة مكاوي، وكثير من أهل البلد يقولون (جرن

مكاوي) إذ كانت محل تجميع محصول القطن كل عام، حتى تلاشت زراعة القطن رويدًا وتلاشى معها الخير. طالما لعبنا صغارًا فوق أكياس وأجولة القطن الخيشية الخشنة وسط متعة منقطعة النظير، مشوبة بحذر من عصا الناظر والخولي التي تطارد مؤخرات الأطفال ولا تفرق بين ولد وبنت!

قبيل الشروع بنصب الزينة ورفع الأعلام والشارات الصوفية في جرن مكاوي، كان محمد مصباح يقوم بجولة في القرى والكفور عبر كل المديريات وحتى بعض المحافظات، يقوم بها بنشاط منقطع النظير، ومع الوقت ذاع صيته وملأت شهرته أنحاء الجمهورية، حتى إنه في أواخر أيامه أصبح قادرًا على إخراج القرية من محليتها وانعزالها، وجعل شغله الشاغل حضور كل احتفال بمولد ولي من أولياء الله في كل بقاع وربوع المحروسة، مهما كانت درجة ولاية وشأن وكرامات صاحب الذكرى، ومهما بعدت أو قصرت المسافات. كان يغيب بالأيام وينقطع خبره بالأسبوع ليحضر احتفالاً هنا أو هناك، ولم تكن ثمة وسيلة اتصال حديثة، لكنه يذهب ويعود في كل مرة أكثر نشاطًا وحماسًا.

وبالتالي جرت العادة بين متزعمي الطرق الصوفية وإقامة الاحتفالات على مجاملة المريدين الأغراب تقديرًا لحضورهم، وإعطاء الزخم والوهج لليالي، الذين كانوا يملأون البلد في أسبوع الاحتفال السنوي

بالشيخ الكبير، من الصعيد ومن طنطا ودسوق والبحيرة والمنوفية والإسكندرية.

هنا يكون أوان إخراج السيوف والأعلام من مخزنها تحت سرير محمد مصباح، أما أسانيد العهد والولاية المعلقة على جدار الغرفة فكان يتم رفعها على عمدان خشبية في احتفال اليوم الأخير المعروف بالزفة. كان هذا أسلوب محمد مصباح في التعبير عن انتصار للطريقة الرفاعية وإظهار الكرامة في الزفة والليلة الكبيرة.

كان مصباح يتوضأ ويختلي بنفسه في الغرفة ويقوم بترديد الأوراد الرفاعية والصلاة على النبي، ويستعد جيدًا، فهذا يومه الموعود، البلد عن بكرة أبيها حاضرة تشهد كرامة كل عام، وكان نجاح الاحتفال بمثابة إشارة ربانية بتجديد عهد الولاية والاستمرار في الخدمة وإقامة الاحتفال التالي.

عند انتصاف الوقت بين العصر والمغرب يعود الموكب إلى جرن مكاوي مرة أخرى، فقد حان وقت العرض. يتطوع رجل من المشاركين، شرط كونه مشهوداً له بالحد الأدنى من الصلاح، ويرقد على الأرض رقدة إسماعيل الذبيح وجبهته على التراب.

يستلّ محمد مصباح واحدًا من بين السيوف، سيفًا مميزًا بجراب ومقبض ذهبي ونصل حاد من غمده، ويبدأ في قراءة ورد بصوت عالٍ وقوي عبر مكبرات الصوت المصاحبة للموكب فوق ظهور مقطورات جرارات الحرث المكتظة بالأطفال والنساء.

يتوقف الموكب تمامًا ويحبس الجميع أنفاسهم خشية ألا يصادف التوفيق إظهار الكرامة.

ويتم الأمر عبر قيام ثلاثة من المساعدين، الأول يقبض بقوة على السيف واضعًا حده على عنق المتطوع، وبمساعدة رجلين عن اليمين وعن اليسار، يأخذ كل منهما بإحدى يدي مصباح، الذي يخلع نعليه، ثم يقف فوق السيف ويضغط بكل قوته ثلاثة أو أربعة ضغطات وهو يقفز فوق ظهر السيف، ثم ينزله الرجال بحذر ويرفع المساعد الأول النصل من فوق قفا المتطوع، فلا يجد أحد علامة ولا حتى أثرًا لحد السيف، فتعْلو الأصوات بالتكبير والحمد، ويلتفت معظم السائرين في الموكب نحو محمد مصباح يقبلون يده ورأسه، وقد انخرط في نوبة من البكاء الشديد بعد توفيق الله له.

وبرغم كل الظلم الذي وقع علينا من هذا الرجل شديد التناقض، لم يستطع واحد منا إنكار كونه رجلاً من رجال الله، والله بأوليائه عليم.

بعد دقائق يلتقط فيها الناس أنفاسهم، يتابع الموكب المسيرة التي بدأت من أمام دار آل مصباح انتهاءً بضريح الشيخين، وبعد أن ينقضي الموكب ينفض المحاسيب والدراويش نحو مضيفة آل مصباح، التي أبدعت فيها سيدات آل مصباح عشرات الصواني العامرة بما لذ وطاب من دجاج ولحم ونابت وأرز وبازلاء وفاصوليا ولوبيا وأرز بلبن، ويأكل الجميع حتى الشبع.

كان أهل البلدة لا يتوقفون عن إرسال النذور تباعاً، منذ صباح يوم الليلة الكبيرة حتى صلاة العصر، وهو وقت تحرك الموكب.

كان بيت آل مصباح يمتلئ بكافة الأطعمة، النار لا تنطفئ من الصباح، رائحة الطعام والخير تسيطر على الأجواء، يُطهى ويقدم في المساء للشيوخ والوافدين الأغراب والمحاسيب والدراويش والمريدين.

وكذا كان حال المنافس على الطرف الآخر، وكل واحد له محاسيب يرونه الأجدر بإقامة مولد سيدنا.

ولقد شهدت ذلك بنفسي لعدة سنوات متتالية، حتى إن أمي كعب الخير قالت إن الأمر كان مكلفاً ومرهقًا ماديًا لآل مصباح في السنوات الأولى من إقامة الاحتفال، لكن سرعان ما تداعى الناس بالدعم لنيل البركة والثواب عن طريق إطعام الطعام، جميع ما يخطر على بالك من أطعمة يُؤتى به، حتى السكر والشاي وأصانص ومركزات الشربات.

مجهود جبار تبذله فهيمة في هذا اليوم، الوجبة الرئيسية والأشهر لسبب غير معلوم هي (الفول النابت) مع اللحم والأرز، والتحلية أرز بلبن من صنع يد أمي، فلم يكن هناك من يضاهي صنعتها بشهادة الجميع، فأصبح حكرًا لها حتى بعدما طردها محمد مصباح بصحبة أبي راضي، عادت مرة أخرى بدعوة منهم بعد بضع سنوات للمشاركة مرة أخرى.

تقديم الطعام وخدمة الزائرين، والضيافة والجود بما هو موجود من مشروبات شعبية، الشربات المائع اللذيذ المتدفق طوال حركة الزفة من بيوت القرية، تتودد به النساء سقاية لأهل الله لينالوا البركة، الأطفال متناثرة في كل مكان كأنه يوم عيد!

المدح النبوي ومدح آل البيت والذكر غير المنقطع، حالة الوجد المصاحبة للإنشاد والموسيقى، لا يمكن إنكارها. ترتيل القرآن مسنداً ظهرك على خشب الضريح بلونه الأخضر، ورائحة البخور والشموع تغزو صدرك وعقلك، والناس حولك في دائرة مركزها روح لا تنتهي، بين تقبيل للسياج ودعاء وتضرع وتوسل بجهل وبعلم، والغاية واحدة، والمضمون أعمق من أن تشرحه الكلمات.

كلما تطورت الدنيا زادت الحرب على مصباح، أُتهم بنشر الخرافة وترسيخ الجهل والشرك في القرية، لكنه خاض حربًا ضروسًا وقاوم مقاومة يُحسد عليها مع المخالفين له، حتى استفزه النقد في سنة من السنوات، فالتقط مكبر الصوت من يد المنشد في الليلة الختامية، والقرية جميعها حاضرة وصرخ بحرقة لا تخلو من حماس:

الناس بتعمل أفراح يا عم الشيخ وبترقص فيها، واحنا في فرح سيدنا النبي.

بحكم العادة، وبحكم كون جدي - رحمة الله عليه - أحد طرفي الزعامتين القائمتين على إحياء المولد والاحتفال بالولي القابع تحت قبة الضريح، منذ أكثر من ثلاثين عامًا اعتدت التواجد في المولد

السنوي في القرية، منذ الليلة الأولى إلى احتفال الخميس المعروف بالليلة الكبيرة.

أسبوع مرهق لآل طائع، لكن كل شيء يهون في سبيل خدمة سيدينا الشيخ الكبير والصغير، ومع مرور السنين تلاشت الدهشة وبقيت بهجة الاحتفال متجددة في كل أبريل.

"المولد" هو مكان شديد التناقض، بين المتعلق بروحه في رحمة الله وبين الواقف أمام لاعب الثلاث ورقات، بين الأعلام الخضراء والشارات الصوفية والسيوف ومنصة المنشد والناي والعود وعمائم الفلاحين وقبعات المتصوفين، وتمايل الذاكرين المنتشين حتى الانجذاب والسقوط لانفصال أرواحهم نحو الأعلى، بين طبقات الذكر وسجع الأوراد بمفرداتها البديعة التي لا يفهمها معظم الواردين، وبين البائعين الأغراب المرسومة على وجوههم آثار الزمن والمشاجرات.

بائعات الحمص والحلاوة، ألعاب الأطفال، الطراطير، الخواتم والسلاسل الفالصو التي تصدأ في اليوم التالي من شرائها، أرجوحات متهالكة تعد بمثابة السعادة المطلقة لكل طفل، يا حبذا لو أنه ركب حصانًا بمفرده في أرجوحة الأحصنة والعربات الدائرية المتعلقة بالسلاسل على إيقاع الطبلة المعلقة في العمود الحامل للمرجيحة.

تشتم رائحة الطعام الشعبي النفاذة، على بعد خطوات.. طعمية، باذنجان عرايس، بائعة المهلبية الملطخة باللون الأحمر، بائع

الترمس بعربته المزعجة دائمًا بما تحمله من مكبرات صوت رديئة الجودة، بائع عصير القصب حين يغمر الكؤوس عشرات المرات في نفس برميل المياه دون تأثير على نظافتها، بائع الحلوى مجهول الهوية، بائعة الفاكهة التي لم أرَ من يشتري منها قط!

أضف إلى ذلك المتحرشين والبصاصين والمشاجرات الدموية في نهاية كل موسم، إما بين البائعين بعضهم البعض أو المراهنين، أو بين أهالي القرى المجاورة لأسباب واهية. وكانت رائحة دخان الحشيش والبانجو وكأنها تنافس رائحة البخور والشموع القادمة من مقام الشيخين. بالرغم من الصورة الروحانية والمظاهر الدينية لاحتفالات المولد، لم تفلح هذه القوالب الدينية في تغيير نفوس شريحة ليست بقليلة من أهل القرية. فقد شهدت قرية الشيخين صراعات وحكايات كثيرة، تدعو للتأمل في الحياة والنفس البشرية، وما فيها من تناقضات. كنت أتساءل كيف يقوم المتمايلون في حلقات الذكر وترتفع أصواتهم بأناشيد الصوفية والصلاة على الحبيب المصطفى، بما لا يخطر ببال بشر، من قتل وسرقة وعلاقات ومؤامرات. وما أن تنطفئ أنوار زينات المولد، حتى تنطفئ معها أنوار الإيمان في قلوب البعض.

أتذكر بغصَّة في قلبي الصراع الأكبر الذي ترك أثرًا طويلًا في نفوس أهل القرية، وهو الذي كان بين عائلتي الحطابين وعائلة الملاّحين، اللتين اشتهر المنتسبون إليهما بالغدر والقسوة والفجر. لم أشهد

هذا الصراع بنفسي، وإنما حفرته خديجة الكبرى في ذاكرتي وتعلمت منها السرد والحكي. بسبب علاقة آثمة بين امرأة من آل حطاب مع رجل من آل ملاح، انفرط حبل الثأر والقتل الذي حصد عشرات الأرواح في القرية. كان كل يوم يشهد مقتل بين خمسة وستة رجال في البلدة وحولها.

كان الفلاحون يكتشفون الجثث صباحًا على الجسور والترع وبين الزراعات. اشتهرت قصة خليل الملاح وسط كل قصص القتل، فلم يقترف ذنبًا يستدعي قتله أمام ابنه الصغير، غير أنه من آل ملاح. قتله عامر الحطاب بعدما تسلل هاربًا من المستشفى، حيث كان يرقد متأثرًا بجروح الثأر، خرج هائمًا على وجهه يبحث عن الانتقام في وضح النهار.

صادف أول من صادف خليل الملاح يحمل ابنه الصغير فوق كتفه، أمره أن ينزله دون تردد وإلا سيقتل كلاهما. مجرد أن أنزل ابنه، أطلق عامر النار فأردى خليلًا قتيلًا أمام صغيره، وقيل إنه عاد مرة أخرى إلى المستشفى ونام على سريره كأنه لم يفعل شيئًا يُذكر.

الدنيا كانت ظلامًا، والأموات كل صباح يظهرون للنور، قُتل ناس كثر، وأخفى الليل الكثير مما لا نعرفه. فلت زمام الأمور تمامًا، وفشلت كل محاولات الدعوة لتحكيم العقل أو العفو، ولم يكن من الأمر بدّ من استنجاد العمدة بحكمدار شرطة المركز طالبًا تدخله.

فأرسل الحكمدار كتيبة من الضباط والجنود الأشداء للسيطرة على الأمور، فقاموا بالتعامل مع الوضع بكل قوة وقسوة، ولولا تدخلهم لانتهى نسل العائلتين من كثرة القتل.

فرض الحكمدار قوانين صارمة على أرجاء القرية، منع الفلاحين من التأخر في الأرض، والعودة إلى منازلهم بعد العصر مباشرة. كان الجنود يصطفون على الطرقات الرئيسية والسكك ومعهم صافرات يعلنون بها وقت العودة للبيوت، الفلاح الذي يتوانى كان يتلقى ما لم يتخيله من الإهانة والضرب المبرح، من جنود اتسمت ملامحهم بالشدة وعدم اللين، يتحدثون بلغة ضمير مختلفة، كانوا ينادون الرجال: "يا أم محمد" أو "يا أم سعيد"، ويستخدمون الأفعال والضمائر المؤنثة في مخاطبتهم.

هدأت الأمور تدريجيًا وخمدت شعلة الثأر في النفوس، وأخذ الجميع فرصة للمراجعات بعد سقوط هذا العدد الكبير من القتلى في صفوف العائلتين.

مع الوقت خف التوتر والإقصاء بين أهل القرية وأولاد العائلتين، وأطعمهم الناس مما يأكلون، ابتغاء إنهاء مسلسل الرعب والقتل في القرية.

(كعب الخير)

عشنا شتى أنواع العذاب خلال هذه الرحلة السعيدة، طالما تمنيت أن ألتحق بالتعليم ولو لعام واحد، بينما أصرت خديجة الكبرى على شطب اسمي من دفاتر المدرجة أسماؤهم لدخول المدرسة الابتدائية، كذلك كان الحال مع خديجة الخفيفة وزينات الصغيرة، ووقفت الظروف أيضًا بين راضي وبين التعليم كونه الابن الأكبر لمحمد مصباح. انعكس حب راضي في أفعاله منذ أول دقيقة وطأت قدمي فيها دارهم، تعامل معي بلطف شديد ليلة العرس بفضل حبنا ولهفتنا، سهل الله لنا كل الأمور وبدا كأن الدنيا كشفت لنا عن وجهها السعيد، لكن هيهات أن يتصالح آل مصباح مع السعادة وترك الحقد وسواد القلب وتقلب المزاج.

قاسية هي قلوب عائلة مصباح فيما يخص العمل بالزراعة وجمع فتات الأموال من أجر عمل الأبناء في الحقول، وعلى رغم غرق القرية بالكامل في الفقر إلا أنني شعرت بفارق كبير في المعيشة بين العائلتين، اليوم هناك شاق وطويل على غير العادة، قبل أن تستيقظ الشمس نستيقظ، ولا نتركها قبل أن تسقط وراء أشجار الغروب، لا عالم ولا حدود خارج القرية، أعتقد الجميع أنه سيعيش ويموت دون رؤية شيء جديد، غاية الأمر أن الشقاء مكفول يقسمه الله بين الفقراء كل صباح، ورأى الرب آل مصباح بعين الكرم في فلاحة الأرض وحمل ترابها والحرث وزراعة المحاصيل وحصادها وجمع مخلفات الأرض، أضف إلى ذلك تربية الطيور والمواشي وحلب البقر والجاموس وصناعة الجبن والزبدة والقشطة، ويباع كل ذلك

ويبقى الحرمان والاشتهاء ساكنين في الجوف، لكن دوام حال الدنيا من المحال، وكل من تمرد نال ما يستحق.

نغصت الحياة في بيت آل مصباح معيشتي، ولم تكن جيرتهم أفضل حالًا بل زادت من معاناتي. رجل يدعى فوزي سمير كان بيته إلى جوار بيت آل مصباح، جعله الله آية للناس، فقد كان يرى عذاب جهنم بين جنبيه ويقول مستغيثًا من طول المرض: "يااارب خلي بيني وبينك بعض العذاب في الآخرة، لا تخلص كل ذنبي في الدنيا."

كنت أسمع صوت استغاثاته طوال الليل فتؤرق منامي، وعندما اشتكيت لراضي قال لي: "كلنا نعاني، ولما طلبنا من والدي التدخل قال متشفيًا: دعوه يصرخ ويشكو، حتى يكون عبرة لمن لا يعتبر."

ارتكب فوزي فوق الفاحشة فاحشة، قتل زوج أخت زوجته (عديله) لأن ثمة قصة عشق بينه وبين أخت زوجته، صور له الشيطان قتل زوجها ليختلي بها على راحته، وكان المقتول رجلًا طيبًا لدرجة السذاجة، استدرجه فوزي ليلًا حتى جسر الحدود، ثم غدر به بعدة ضربات فوق رأسه ببلطة حادة هشمت رأسه تمامًا. صباح اليوم التالي وجدت وردة زوجة سيد الحانوتي الجثة مغطاة ببعض عيدان حطب القطن وهي تقشقش في الأرض باكرًا، وعاشت مريضة بعدها حتى توفاها الله مما رأت من بشاعة المنظر.

لم يبلّغ العمدة الشرطة بالجريمة لحساسية الأمر وتم تحديد إقامته ببيته وترك القصاص للانتقام الإلهي، خاصة وأنه كان في بداية مرضه العضال.

ظل فوزي يعاني المرض سنوات، يرى النار في جسده والكل يعرف ذنبه حتى مات غير مأسوف عليه، يستكمل ما تبقى من العذاب بين يدي خالقه.

أكلت وشربت مما يأكل منه البيت ويشرب، حتى مرتب الجيش، حرمني منه، كنت أنا وراضي ملكًا لأبيه ولعائلته، أربعة جنيهات لمدة ثلاث سنوات تقريبًا لم أذق منهم "شلن".

كان ينتظره حين عودته من الجيش، لا يبادره بالسلام وإنما بسؤاله عن القبض ليأخذه. زمان كانت الدولة تعطي لمن التحق زوجها بالجيش ورقة تسمى "سركي" عليها صورتي، أقبض بها المرتب، أربعة جنيهات كل شهر، ولم يكن الأمر سهلًا في قطع تلك المسافة الكبيرة بصحبة نجية زوجة عزت الخياط، فقد كان زوجها أيضًا ملتحقًا بالجيش في تلك الفترة، كنا في مطلع كل شهر نقطع المسافة حتى المركز مترجلين يكسو غبار السكة أقدامنا ونادرًا ما كنا نركب مواصلة إلا في أيام الحر الشديد، قرابة الساعتين نمشي تحت أشعة الشمس الحارقة في الصيف، وتحت المطر في أيام الشتاء مقابل أربعة جنيهات وريال، لا أنال منهم إلا الحسرة والكبت، أجده

ينتظرني يأخذ كل القبض وينقبض معه قلبي حين تنكسر أمنيتي في كل شهر أن يرق قلبه ويعطني ولو شلن مما أعطيته.

تخيل أن الشلن الذي يساوي خمسة قروش، كانت قيمته تساوي اثنين كيلو من الأرز.

أقول في نفسي: يعني أقطع كل تلك المسافة شهريًا وأحمل القبض بين يدي من المركز حتى الدار، ولا ينالني منهم شيء.. حسبي الله ونعم الوكيل. كدنا نفقد الأمل، حتى جاء جبر الله في تمام السنة السادسة، نورا راضي محمد مصباح هي الأغلى في قلوبنا، فرحتنا بها لا تصفها كلمات، ملأت قلوبنا السعادة برؤيتها تكبر أمام أعيننا. مر نصف عام على ولادتها وأظلنا شهر رمضان، كان الجوع قبل الإفطار وبعده لا يسد، واتخذت من بر خديجة الكبرى حجة لسد الجوع القارص الذي ساعدته الرضاعة على أن يكون أكثر قسوة، جميع آل مصباح متسلطين، وذهابي لزيارة بيت أهلي يتطلب الإذن من الجميع، جدك يقول: كل ما يحدث في الدار لابد أن يكون تحت علمي.

كان كثير السؤال والتطفل وأتاحت له غرفته في مدخل البيت مركزًا للمراقبة، وطلب تصريح شفوي بالدخول والخروج، أما راضي فقد نبض عليه عرق الرجولة وقالها بشكل صريح بعد خروجه من الجيش: أنا زوجك ولا طلب إذن بالدخول والخروج من أحد غيري.

وهو العالم بأهله وطباعهم، لكنه في وقت ما قرر خوض مواجهة غير محسوبة مع أبيه.

على الجانب النسوي لابد من إعطاء خبر مسبق لـ فهيمة سعفان قبل مغادرة البيت، لتتأكد أنني لم أخلف ورائي أعمالًا مؤجلة، كأنهم قد اشتروا جارية. كان زمان الناس متحكمة بشكل مفرط، الشاهد من الأمر أنا جالسة لتحضير السلطة للإفطار وأذان المغرب على وشك الرفع، قلت لراضي: أود الذهاب لزيارة أمي بعد المغرب!

وافق بشكل مباشر وكان جالسًا بجواري، وأردف بقوله: المهم لا تتأخري.

انتهينا من تناول الإفطار وتبعت ذلك بترتيب المكان وغسل الأواني والأطباق بنشاط وهمة ابتغاء الانصراف في أسرع وقت، لم نكن تجاوزنا اليوم الخامس من شهر رمضان على ما أذكر، أخذت نورا بعدما انتهيت من كل الأعمال وانطلقت دون إخبار أحد ممن يصدرون تصاريح الدخول والخروج، معتمدة على التصريح المعتمد من راضي، اعتبرت ذلك صمام الأمان والحماية من أذى ألسنة المصابيح.

على غير الظاهر من هدف الزيارة أنها لرؤية خديجة والأنس بها، أخفيت هدفين آخرين، أولهما تذكير المعدة بالشبع من خير أمي، والهدف الثاني أن عائلة مصباح لا يملكون تلفاز بعد، بينما خديجة الكبرى اشترت هذا الاختراع الجميل حيث فوازير نيللي والمسلسل،

جذبتني حركات الاستعراض وجلست مندهشة أشاهد كل ما يعرضه صندوق العرض هذا، - تطورت الدنيا في القرية نسبيًا بدخول الكهرباء -، ونورا نامت ملتقمة صدري، أشبعها بعدما شبعت أنا، وتسارعت الدقائق والساعات وسرقني الوقت بغفلتي في السعادة وسط أهلي، رغم بلوغي العشرين ربيعًا لا أزال طفلة غير مدركة للكثير من المعاني في القرية ولا بقسوة قلوب الناس. ولأن خديجة الكبرى تدرك كل ما سبق، وصبغ سواد قلوب العباد كثيرًا من الأيام أمام ناظريها، لم تشأ أن تصرح لي بالانصراف لتأخر الوقت، واكتفت بالتلميح مرة واثنتان وثلاثة، ولم تجد بدًا من التوضيح بوجوب الانصراف بحجة عدم التأخر على راضي، وهي تعلم علم اليقين أن محمد مصباح هو صاحب اليد العظمى واللسان السليط والمتحكم في كل نفس خارج أو داخل صدر المصابيح. كلما نبهتني أمي بالانصراف، أجبتها دون وعي، أنني سأنصرف بمجرد انتهاء "التمثيلية". حتى أخذت الدنيا وقتها في كتابة سيناريو كامل بمثابة نقطة تحول كبيرة في دراما أيامي القادمة.

بعد منتصف ليلة قاحلة السواد، في صيف شديد الحرارة أيام البطيخ، والناس كلها مستيقظة بين الهارب من الحرارة أمام البيوت، وبين منتظر للسحور، وبين من يتفحص المارة من أين جاءوا وإلى أين ذهبوا.

وراضي يملأه الغضب جراء الانتظار كأنه فوق جمر يتقلب عليه، بفعل تحريض أهله الغاضبين من كوني لم آخذ الإذن من أحدهم، ساخرين منه كونه ضعيفًا أمامي بسبب الحب.

بمجرد وصولي للدار وجميعهم منتظر يشاهد ماذا هو فاعل، انطلق يقول: "ارجعي مكان ما جيتي... يلا مكان ما كنتي ارجعي... يلا..."

لم ألتفت إليه وأدركت سريعًا حجم الخطأ الذي وقعت فيه، وفهمت أن المؤامرة حيكت بعناية، صعدت إلى مقعدنا دون أن ألتفت، خشيت على نورا من صوته الغاضب أن يفزعها من نومها.

زاد الغضب مصحوبًا بالإحراج حينما تجاهلت الجميع مترقبين شاعرين بخيبة أمل من عدم تصاعد الأمر، فقرر أحدهم قول كلمة خبيثة صب بها الزيت على النار التي أشعلوها في صدر راضي.

صعد ورائي مكررًا نفس العبارات: "انتي راجعة ليا بعد نص الليل؟ ارجعي مكان ما جيتي!"

كررها كثيرًا، فوضعت نورا على السرير، والتفت نحوه بحرقة الكرامة والغضب: "أرجع أرجع... مفيش مشكلة... هو أنا يعني مش هلاقي آكل عند بيت أهلي؟"

منذ أن تزوجنا لم يضربني ولا مرة، لكن - الزن على الودان أمر من السحر - وهؤلاء سحرة حقد وغيرة!

اتخذ من كلامي زريعة لتنفيس غضبه ورضاء غروره وحفظ ماء وجهه أمام أهله، ضربني ضربًا مبرحًا، فأخذت أصرخ بصوت عالٍ، وصعدوا ليتفرجوا عليَّ وأنا في هذا الموقف شامتين، وليس في قلوبهم مروءة ولا رحمة، حتى أنهم قالوا: "لا تصرخي، لماذا تصرخين؟ هتلمي علينا الناس وتفضحينا يا فاجرة."

وبكيت كما لم أبكِ من قبل، وأدرك في نفسه أن بعد هذا الضرب والخطأ الذي اقترفه بحق حبنا، أنني عائدة إلى بيت أهلي دون تردد، بادر بخطف نورا من فوق الفراش وأعطاها لأمه قائلاً: "يا أمي تعرفي تربي نورا؟"

قالت فهيمة: "عندنا اللبن والخير وأربيها أحسن تربية."

استنفدت كل سبل الرجاء أن يعطوني نورا كي أعود بها إلى بيت أهلي، لكنهم منعوني إياها إلا أن أمكث دون تمرد ولا عصيان.

جلست الليل بطوله أبكي وأبديت لراضي أني مخطئة وأني باقية ولن أغادر. أتى بنورا بعدما تناولوا السحور بدوني. رد الله روحي ونسيت كل الألم حين عادت نورا إلى حضني، روحي متعلقة بها إلى الآن. أرضعتها وتوسدنا الدموع حتى الصباح، والله بنا عليم.

عند ظهيرة اليوم التالي، ومعظم الناس بين قيلولة وبين مستتر من قيظ الشمس الغاضبة، جمعت بعض الملابس المهلهلة خاصتي أنا ونورا، فقد عقدت النية على غضوبة كبيرة.

امتلأت الصرة التي صنعتها من ملاءة الفراش ووضعتها في الطست النحاس كنوع من التمويه.

تسللت مسرعة هاربة متوجسة من أن يستوقفني أحد منهم، وتشبثت نورا فوق كتفي، تحاول طرد القلق الذي أصابها ليلة الأمس، ساعدتني على الفرار من بين أيديهم بصمتها دون بكاء كي لا تلفت الأنظار.

من الذي يجلس في طريقي أمام الجمعية الزراعية لصرف السماد؟!

الملعونة فوزية، بجوار أخيها محمد مصباح، رأيتهما وحاولت التخفي والإسراع، وكانت على علم بما حدث ليلة أمس. بلغني فيما بعد أنها حرضته بقولها: "مرات ابنك عزلت الدار وماشية عند أهلها."

ولولاها ما تصاعد الأمر، لأن ضعف نظر أخيها منعه أن يراني أصلًا، لكن الخبث دينها، وموهبتها الوشاية وتناقل الأخبار، والله أذاقها مما سقت به غيرها من نفس الكأس.

سألت خديجة الكبرى باستنكار وهي العليمة، بعدما صكت صدرها: "رجعتي تاني ليه يا بنتي؟"

أجبتها باكية: "ضربني، موتني ضرب."

ساعدتني بوضع الطست من فوق رأسي المعصوبة بقوة جراء الصداع والجوع والضرب. وفجأة وجدنا محمد مصباح فوق رؤوسنا يصخب قائلاً: "بنتك سرقتنا يا خديجة، ده طشتنا ودي صرتنا وبنتك سارقة كل حاجة من دارنا."

انطلق الرجل بأعلى صوته كأنما أراد إنهاء النسب، خاصة بعدما أشعلت فوزية النار في صدره، وها هو قد وجد سببًا لذلك، وليس أكبر من السرقة ذنب. انقض الرجل على الصرة وأخذها من بين أيدينا وهمَّ بالانصراف، وهو يردد أني قد سرقت آل مصباح بصوت جهور وسط الشارع، حتى انجذب الناس نحو الصوت يدفعهم الفضول. حاولت خديجة استخدام صوت العقل، وتمالكت أعصابها حتى اللحظة الأخيرة، حينما كررت له قولها:

"تعال يا أبا مصباح افتح الصرة، إن وجدنا فيها شيئًا يخصكم، ذبحت كعب الخير ودفنتها أمامك في الزريبة مع البهائم."

لكنه لم يلتفت بعدما كررتها ثلاث مرات تقريبًا، ولم يعد هناك بد من أن تنقذ شرف العائلة بما ستفعله.

لم تكن خديجة تعلم ما بداخل الصرة، فقط ثقتها فيما ربتنا عليه من الأمانة ومعرفة الله، ولم يكن هناك متسع من الوقت أن نحكي شيئًا مما دار ليلة أمس، حتى باغتنا محمد مصباح بوقوفه على عتبة الدار وهو يصيح بما قال.

قالت خديجة لاحقًا: "يشهد الله، مهما بلغت ثقتي في كعب الخير، أوقع الشيطان الشك في نفسي، وخفت من حجم الصرة الكبير، ووقعت بين ويلين: مجازفة فتح الصرة أمام جمع من الناس المتجمهر، وبين تركه يذهب بها ثم يدس فيها شيء يتهمها بسرقته من دارهم.

الخياران كلاهما صعب، لكن كما يقول المثل: ما يبقاش ابني في حجري وبعدين أدور عليه، لابد من البكاء على رأس الميت، وليس بعدما يدفن، وليس بعد العيد يتفتل الكعك."

قرأت خديجة الخفيفة في عيني خديجة الكبرى ما أرادت فعله بعدما خرجت من بيت شملان على صوت محمد مصباح، فألقت بابنها شريف جانبًا، وهو بنفس عمر نورا، ولدناهما بنفس الأسبوع، وهرعت وراء محمد مصباح قبل أن يغادر بمكيدته، وتعلقت بالصرة دون أن تفلتها، وقبضت بيديها عليها. تنازع محمد مصباح عليها، ومن ورائها خديجة الأم، بين شد وجذب أمام الناس، حتى انفرطت الصرة كاشفة عما بداخلها. وابتهجت أسارير الخديجتين لما شاهدتا حوايا الصرة عبارة عن ملابس مهلهلة لكعب الخير ونورا ليس إلا.

التقطت خديجة الكبرى أنفاسها بعدما بعثرت كل ما في الصرّة وسط الشارع، وشهد الجميع براءتي مما أراد أن يتهمني به محمد مصباح... وبدأت في رمي الملابس المهلهلة في وجه محمد مصباح المتشح بالخزي بعدما تجمعت عائلة طائع وجزء كبير من عائلة مصباح،

وهي تردد بكل ما أوتيت من قوة صوت: خد يا قليل الأصل، ماذا وجدت في الصرّة؟ يا جعان، يا اللي قاتل أمك، يا جاحد، لقيت لباس لابنك؟ لقيت كيزان ذرة؟ لقيت فلوس؟ وجدت كيس سكر؟ لقيت معلقة من عندكم؟

بعد صمت لم يطل، عبر محمد مصباح عن ردة فعله الغريبة، رفع نعله لخديجة الكبرى، تملأ عينيه الوقاحة وهو يقول: وإن طاله آل طائع.

ردت خديجة بحرقة وكرامة: إن كان الحبل هيطول، أنا هقطعه. توقف عقلي عن التفكير وأنا أشاهد ما يحدث، وخُيّل لي أنها نهاية حزينة لا رجعة فيها، وأن الأمور وصلت لما لا يمكن معه إصلاح المصلحين.

يمر شهر رمضان بالكامل على هذا الوضع، الغيظ والانتقام يملآن قلوب المصابيح المظلمة، دفعهم ذلك لفعلة حقيرة على بساطتها لكنها أثارت جنوني. كان راضي قد أهداني قطعة قماش كي أفصلها جلبابًا لعيد الفطر عند نجية الخياطة، وتبقى منها قطعة بعد التفصيل، صنعت منها نجية فستانًا لـ نورا. قبل العيد بأسبوع تقريبًا أرسلوا في طلب الجلباب، وبحسن نية أعطتها لهم نجية. عمتك سمر كانت مخطوبة آنذاك، ألبستها فهيمة الجلباب وجعلتها تدور به حول البلد، متعمدة المرور من ناحيتنا. رأيت جلبابي فوقها، طار عقلي وثارت نفسي، وبكيت أشد ما بكيت، وبين نفسي عتاب لراضي.

لم يكن الأمر بالهين على راضي حين رأى أخته ترتدي هديته لي، نهرها وعنفها، وكذلك نهر فهيمة على تحريضها، أخذ الجلباب وضمّه لفستان نورا ورتبهما، واحتفظ بهما في خزينة الملابس خاصتنا. بدأت الصورة تتضح وتبين له النوايا الخبيثة المخربة، وحن قلبه لنا مرة أخرى بصدق. بدأ اهتمام أهله به يتلاشى بعد مرور بضعة أيام فقط، ووجد نفسه وحيدًا، وتبين أن الأمر انتقام منه جزاء حبه لبنت مسالم طائع، وليس انتقامًا له، وكيف ينتقمون له من نفسه، وأنا ونورا نفسه التي بين جنبيه! لكن لولا حدوث ما حدث، ووقوع الغيرة والتغير على النفس، ما وجدنا حكاية نحكيها!

بدأ راضي يتردد علينا كل يوم صباحًا ومساءً، ابتغاء مصالحتي وعودتنا معه لدارهم، قابلت خديجة الكبرى كل محاولاته بالرفض القاطع والسخرية الموجعة بقولها له: يا ابني، لما نعرف إحنا مزوجينها لمين الأول، أبوك اللي متزوجها ولا أنت؟

على الطرف الآخر، محمد مصباح ليس عنده ما يشغله، دائر في القرية معظم النهار وجزء من الليل، يردد: هقطع جدرها من الدار، لن تدخل دارنا مرة أخرى. تجن خديجة حين ينقل الناقلون لها هذا الكلام، وتصاعدت حرب نفسية بين العائلتين بشكل لا يوحي بخير قادم.

سلك راضي كل مسلك ظن به حل المشكلة المتفاقمة، حتى أنه استسمح العمدة بالتدخل في الصلح، بحكم كون راضي يعمل عنده وقتئذ، يركب جرار الحرث الخاص بالعمدة، حيث تعلم القيادة في فترة الجيش وكان سائقًا هناك. أرسل العمدة خفيرًا مرتين لاستدعاء أخي محمد للسماع منه، لكن كثرة الكلام وتناقل الأخبار المغلوطة والفجر في الخصومة وقفت حائلًا أمام كل محاولات الصلح.

أثارت كثرة تردده علينا غضب خديجة وسط ما يفعله أهله، ورأت تناقضًا هائلًا في الأفعال، فلما كان يوم وقفة عيد الفطر وجاء بعد صلاة العشاء مرة أخرى، لم تتمالك خديجة أعصابها وقالت متمتمة بصوت مسموع: هو جاي تاني ليه؟ ما هو كان هنا الصبح، إحنا قرفنا وزهقنا. كبر بها الشيطان في أذن راضي، فقال على فوره: أنا جاي أطلقها يا ست خديجة.

ردت عليه بهدوء وثقة: نعم، نطلقها ونرتاح، نبعت لعمها وكبار العائلة، وهات أبوك وتعالوا نطلقها ونرتاح من قرفكم.

تولى غاضبًا منزعجًا، وتركني باكية بحرقة، والدموع تبلل وجهي، وأرضعت نورا حزنًا شديدًا في هذه الفترة، وقلت لأمي: لا أريد الطلاق. فلم تجبني. أعلن لهم راضي عن رغبته في الطلاق، فلم يجد بينهم من يثنيه عن الفكرة أو من يقدر مسؤولية وجود طفلة مشتركة تربط بين الدماء، يرغب الجميع بدفع الأمور نحو الانفصال، يحرضهم العداء التاريخي والحقد الدفين في نفوسهم.

بين الجَد والهزل وجد راضي نفسه مشحونًا بالغضب، بدأ في ترتيب خطوات الطلاق. سأل فهيمة: هل من شيء مفقود أو ناقص من متاع كعب الخير؟

أجابت بالنفي، اللهم إلا "القلل والأباريق"، الآن أرسل سمر تشتريها من سوق الأحد.

دخلت الأمور في الجد بشكل كادت معه أن يفلت زمام الأمور، لكن ما فعله راضي لم يكن سوى اختبار حقيقي لآل مصباح رسبوا فيه جميعًا.

هدأت الدنيا نسبيًا بعد تدخل عقيل وطرح خطة بديلة بالاتفاق مع راضي، سوف أرجع للبيت مقابل انفصالي في المعيشة من مأكل ومشرب عن أفراد العائلة. أعلن راضي الأمر بمثابة المفاجأة غير السارة لهم، كما كان يوم العيد حزينًا لنا أيضًا.

انتظرت النهار بالكامل وفقدت الأمل في قدوم راضي، بعدما أسدل الليل ستائر الأمل فوق ثياب نورا الجديدة التي انتظرت أبيها، وما شغله إلا تدبير وتصعيد خطر في باله بعدما رفع الله الغمامة من فوق عين بصيرته، ورأى نوايا أهله الحاقدين!

بعدما حزمنا الأمتعة وتجهزنا لزيارة عيد الفطر السنوية لزينات الصغيرة في المنصورة بصحبة أمي وأخي، جاء راضي يصطحب عمه عقيل، فذهبت خديجة الكبرى ومحمد مسالم في اليوم التالي بدوني للمنصورة، وذهبت أنا مرة أخرى نحو مجهول آل مصباح، ذهبت

بكامل إرادتي رغم تحذير أمي من توعد عائلة مصباح بالانتقام، وقد كان.

أخيرًا وافقت أمي وأخي على العودة، إكرامًا لخاطر عقيل مصباح، إذ كان هذا الرجل دائمًا متميزًا بين عائلته، ومن الواضح أنه ورث بقوة صفات كعب الخير الكبرى.

ما أصعب العودة حين تكون بلا أفق ولا وفاق! لم تكن هذه غضوبتي ولا عودتي الأولى، لكن هذه المرة غير كل مرة. افترق عنا عقيل وسط الطريق، وسلكنا ما تبقى أنا وأبوك الذي بدأ يسرد لي تفاصيل المخطط المرسوم في دماغه:

أنا ملزم حتى بقضاء حاجتك ودخولك وخروجك من وإلى الكابنيه – لم يكن بالدار سوى حمام واحد في الدور الأرضي – أكلك وشربك وكل حياتك فوق، لا تنزلين إليهم مهما كلفنا الأمر، ومهما حدث منهم من أذى.

وقع قلبي بين قدميّ من نبرة كلامه، وقلت له: لن أستطيع مقاومتهم ولن أطيق العيش وحدي مستقلة وسط أهلك، سأعود إلى بيت أهلي حتى تجد حلاً مع أهلك.

طمأنني قائلًا: اسمعي كلامي، وأنا المسؤول عنك، وسأتحمل كل أذى لأجل خاطرك أنت ونورا.

وصلت مترقبة كأنها المرة الأولى التي أدخل فيها دارهم، الوضع ينذر بتأهب بدا على الأوجه العابسة. لم يكن للدار سوى حمام واحد في الدور الأول، أصبحت مضطرة لتنظيم وقتي بحيث يكون دخول بيت الراحة مرتين في اليوم بحد أقصى.

أكثر ما أثار حفيظتهم وهيج مشاعرهم كان حين يشعرون أني أستحم واغتسل من العلاقة التي لم نستطع عليها صبرًا بعد اشتياق قرابة الشهر، فعلت كل شيء تحت نظر المترقبين المتلصصين، ولم أسلم من الأذى، أقذر الشتائم وتلقيح الكلام من فهيمة وسمر ونوال وفوزية حين تأتيان. وسمعت من الجميع ما لا يحتمله بشر، وتحملت فقط من أجل راضي ونورا.

أخرجوا كل ما بداخلهم من كبت ونقص رغم كوني زوجة ابنهم الأولى، ورغم وجود زوجة رجب وعبد الرسول، لم يعان أحد مثلما عانيت.

احتملت كل هذا الكم من الشتائم والإهانة دون أن ألتفت، كنت أهرب مسرعة متماسكة إلى غرفتنا، ثم أنفجر بالبكاء بين يدي راضي، حتى بكى معي ذات مرة وشعرت فيه بقهر الرجال الناتج عن ضيق ذات اليد. وقت لا تصفه الكلمات، مشاعر متضاربة، ضغط نفسي، يأس معجون بالخوف. مرت ثمانية أيام بالعدد لم أعرف للزاد طعمًا، لم أستطع بلع طعام نتيجة الحزن وتصاعد الإهانة والسباب اليومي.

اشترى راضي وابور جاز وجعله في مقعدنا لتحضير الطعام، وطلب أن أطهي له دجاجة اشتراها من السوق بنصف جنيه، رغم أن حديقة الدار مليئة بالدجاج.

أشعلت الوابور وبدأت في الطهي، تاركة الباب مفتوحًا حتى لا تختنق نورا من دخان الجاز المنبعث، فما وجدت إلا فهيمة وفوزية أمامي ومن ورائهما محمد مصباح وقد شمر عن ساعديه. صرخت فيَّ فهيمة بعد فاصل من السباب: راضي وإخوته هيموتوا بعض من تحت راسك، هيدبحوا بعض، عملتي حريقة في البيت! وأخذت تحرض زوجها على طردنا، وبررت كاذبة: ابنك بيسرق اللبن والقشطة لكي يطعمها هي وابنتها.

أشار لي راضي بعدم الرد مهما حدث.

نجحت فهيمة في إثارة جنون محمد مصباح، فانفجرت من فمه قنبلة من الشتائم والسب واللعن. وشمر عن ساعديه وأعلن عن قراره النهائي بطردنا من البيت، وحذرني: "أي حد هييجي لي هنا من ريحتك، سيرى مني ما لا يرضاه".

واصلت فهيمة السباب حتى بدأ راضي في البكاء من أجلي، وتوسل لها بالتوقف عن سبابي وإهانتي، فما وجد منها غير قولها: "أنا هحفر روح أبوها في التربة".

بهذه العبارة جعلت قلبي يحمل لها مشاعر بغض وكراهية منعتني من مسامحتها حتى وهي على فراش الموت رغم توسل الجميع.

سقطت كل الأقنعة، وانعكس سواد القلوب على الوجوه، ووصل الأمر بضرب محمد مصباح لراضي بنعل الحذاء على أم رأسه، والجميع لا يحرك ساكنًا، الكل يشاهد بين شامت وجبان وخسيس ومغلوب على أمره.

قال راضي بلهجة ابن بار متسامح: "أنت أبي، ولو قلت لي أرقد لكي أذبحك، لرقدت."

كدت أن أجن في هذا اليوم مما رأيت من قساوة القلب، وظن راضي أنه قد يصلح الأمر ويتجاوز الموقف بتطييب خاطر أبيه، لكن السيف سبق العزل، وأخيرًا أعلن راضي الرحيل والتمرد على خوفه قبل كل شيء، بينما اشترط مصباح للخروج شرطًا لا تنازل عنه.

قال لراضي: لن تخرج من الدار، ولن تأخذ قشة واحدة من العزال قبل فتح الدولاب، أنت محوش فيه ألف جنيه.

غاية ما في الأمر أننا مدخرون شيكارة سكر، ووضع راضي قفلًا على الدولاب، جعلهم يتخيلون أن ثمة كنزًا في الداخل.

نهاية ما حدث، وجدنا أنفسنا مطرودين في الشارع متجردين من كل شيء، جلست في الشارع أحمل نورا، والناس بدأت في التجمع حول دموعي وقولي: حسبي الله ونعم الوكيل. ووقف راضي صامتًا في

مهب الريح، بدأت الناس تسأل وتجيب على بعضها البعض: ماذا حدث؟ أبو مصباح طرد ابنه ومراته من البيت.

حضر عقيل مصباح وصديقه صالح الصغير، وتساءلا عن الأمر، فأجابتهما همهمات الناس وسط بكائي وانكسار راضي.

أراد صالح رفع الحرج عن صديقه عقيل لعلمه بأن لا يوجد توافق بينه وبين أخيه الكبير محمد مصباح، توجه صالح مباشرة إلى الداخل، يصطحب راضي في يده، وتحدث مباشرة دون مقدمات: سلام عليكم يا أبو مصباح، لو كانت مرات ابنك دي عبارة عن قطعة نار، هل تتحملها من أجل ابنك؟

أجابه: أبدًا، لن يدخلوا البيت مرة أخرى.

قال صالح: ما دام الأمر كذلك، دعه يأخذ أغراضه وأغراض مراته.

لا... لما يفتح الدولاب أولًا.

التفت صالح متحدثًا إلى راضي في حضور عقيل: يا ابني، هات المفتاح يفتح الدولاب علشان يديك عزالك ونفضها سيرة.

وافق راضي أخيرًا بعد كلمات طيبة من صالح، فناوله المفتاح.

فتح محمد مصباح الدولاب، فلم يجد به سوى السكر وساعة اليد الخاصة براضي التي تسلمها في الجيش قبل سنوات.

حمل السكر فوق كتفه، ودس الساعة بكل وقاحة في جيب قميصه، حتى ملابس راضي أخذها جميعًا، لم يترك له إلا ما كان عليه من ثياب، وأشار لنا: خدوا الكراكيب والزبالة بتاعتكم، يلا في ستين داهية!

لم ينتهِ الأمر هنا، بل صمم بنوع من الجبروت على ذهابي لبيت أهلي كي أحضر "القائمة" الخاصة بتفاصيل الزواج من مهر وخلافه، أراد شطب توقيع اسمه من عليها وأن يتبرأ من كل شيء يخص راضي، كل ما في الأمر مائة وخمسون جنيه مهر ومثلهم مؤخر.

حملت نورا على كتفي وأسرعت نحو بيتنا، فوجدت سهام الطعن في شرفي تأتيني من الخلف صوبها نحو قلبي، لسان نوال التي تبعتني حتى منتصف البلد، وهي تردد: "خربتي الدار يا فاجرة، البنت اللي على كتفك دي مش بنت أخويا، شوفي جيباها منين".

لم أتجاوب معها نهائيًا ولم ألتفت نحوها، وفي اليوم التالي عندما عرفت خديجة الكبرى ما حدث، قالت لراضي: "أنا هحلل دمك ودم نورا بنتك، ولابد أسجن نوال أختك بتهمة القذف."

قبّل راضي رأس خديجة، محاولًا إرضاءها وتهدئة غضبها الملتهب، وعقب بأن لا عودة مرة أخرى إلى كنف آل مصباح، هذا خروج نهائي، وكل كلام نوال وغيرها ناتج عن غيرة نسوان وحقد زرعته فهيمة سعفان ومحمد مصباح في ذرية الأبناء.

فكر راضي في حركة تمرد بعدما ألقوا جميع أغراضنا في عرض الطريق، قال: "سوف أقوم بنصب السرير هنا في قلب الشارع وأنام عليه أسبوعًا كاملًا، وأجعل منهم فرجة للناس ونموذجًا يضرب به المثل في القسوة والشر المستطير."

لكنه لم يتمسك برأيه طويلًا وأقنعته بعدم جدوى الأمر، كفانا ما ذقناه من أذى، وتحركنا نحو بيت أهلي، نجر أغراضنا تباعًا ومن خلفها خيبة الأمل وقليلًا من اليأس.

رغم قوة الصدمة، أصبحنا نرى الأمور بشكل أوضح ونفكر في المستقبل بنوع من الاستقلالية. في ذات اليوم أكرمنا الله بغرفة تشتمل على حمام صغير، بجوار بيت أمي، وكانت الغرفة مهجورة من ضمن ورث سيدة كبيرة من آل طائع، لها صلة نسب مع آل سعفان، استأجرنا الغرفة لأربعة أشهر.

انتشرت الحكاية فوجد محمد مصباح نفسه صغيرًا في وضع مخزٍ، جميع أهل البلد يلومونه على فعلته، وهو الذي لم يتعود النقد، بل تعود المدح من الجميع، وأن يقبّل الجميع يده وينظرون له نظرة الولي العارف، فبدأ في إرسال المراسيل، لعل في الأمر بقية من أمل أن يصلح، لكن الخروج كان بلا عودة.

بدأ بالترغيب وانتهى بالترهيب، وكلا الأمرين باء بالفشل.

ليلة ما خرجنا من عندهم ووجدنا الغرفة بمساعدة خديجة ومحمد مسالم، اشتعلت النار في نفوسهم وشعروا بأن فضيحتهم ستكون وصمة عار للأبد فوق جباههم. وجدنا رجب وعبد الرسول يتوسلان في نفس واحد: "يا ابني ارجع، أبوك يبلغك أنه سيفعل لك ما تريد."

أجابهما راضي بحسم: "لا، لن أعود، خلاص.. انتهى الأمر."

توسلتُ إليه بأن أبقى في البيت وأن أدفع له إيجارًا للمقعد، لكنه قال لا، وضربني بالحذاء أمامكما ولم يحرك أحد منكما ساكنًا، والله لو انطبقت السماء على الأرض لن أرجع.

حاولا استجداء عطفه فقالا: "طيب، أرجع علشان خاطر أمك، فقد غشي عليها بعد خروجك، ولا تزال فاقدة للوعي."

أجاب بحزم: "لا، لن أعود لو متم جميعًا."

لم ينجح الترغيب المزيف في زحزحة الوضع عما هو عليه، فدفع محمد مصباح فهيمة بما لها من صلة نسب مع صاحبة الغرفة التي استأجرناها، بأن ترسل لنا رغبتها في بيع الغرفة في أقرب وقت، وكلما أرسلوا رسلهم بالخبر أجبناهم بأننا سنشتري إن كانت رغبتهم صادقة في البيع. والحقيقة أننا لم يكن معنا ما يكفي لإطعامنا في ذلك الوقت، لكن خطتهم كان لها تأثير عكسي، إذ حفزتنا أكثر لمقاومة ترهيبهم لنا ابتغاء العودة، وضاقت أنفسنا من الحرب النفسية التي لا تهدأ، وكان لابد من ترتيب جديد وتضحيات من أجل

الحب والمستقبل. اتخذت قراري وأبلغت خديجة الكبرى ومحمد مسالم برغبتي في بيع ميراثي من أبي، لم يتردد كلاهما، ولم ينم خالك في تلك الليلة حتى باع لي ثلاثة قراريط، كانت هي ميراثي من جدك رحمه الله عليه، القيراط الواحد بخمسمائة جنيه. أصبح معنا ألف وخمسمائة جنيه حصيلة بيع القراريط الثلاثة، يعتبر هذا مبلغًا زهيدًا بسبب بعد الأرض عن العمران، لكن كانت فيه بركة أبي، أفضل وأنقى من أنجب آل طائع.

اشترينا نصف قيراط بألف جنيه على طرف البلدة، لكنه ضمن حيز العمران. تبقى معنا خمسمائة فقط من المبلغ، فقررت أن أقف بجوار الرجل الذي أحبه قلبي بكل ما أملك، ولم يكن لدي بعد بيع الأرض غير الذهب، ثلاث غوايش ذهبية. كان سعر الجرام وقت أن اشتريتها ثلاثة جنيهات وريال، وكانت الأسعار تتحرك رويدًا رويدًا مع عصر الانفتاح والتطلع لبداية عصر استقرار سوف يدوم طويلًا.

حصلنا على أربعمائة جنيه من بيع الذهب، ومع ما تبقى من ثمن الأرض، أصبح معنا تسعمائة جنيه، وكانت تعتبر مبلغًا محترمًا في ذلك الوقت. باشرنا البناء ووقفت خديجة في ظهرنا تساند وتبارك كل خطوة، وأحاط بآل مصباح الندم والانكسار والصمت بعد أن فشلت كل حيلهم لإيذائنا وتنكيد عيشتنا.

بالطوب اللبن رفعنا الجدران، ووضعنا قضبان الخشب للسقف، وظهرت معالم البيت، غرفتان وصالة وحمام مستقل أخيرًا، كان في أعيننا قصرًا. دخلت الكهرباء البيت وأنارت الحياة من جديد، وكذلك المياه وتحسنت الأمور، واستمتعنا بالخصوصية التي علمتنا الأيام أنها أصل السعادة، مرحلة جديدة سطرناها بالدموع والعرق والحب والتضحية والثقة والإخلاص.

(نورا)

هدأت النفوس، واستقر الحال، ووجدت نورا حبًا من نوع جديد لا ينغصه توتر ولا يشوبه قلق.

وتطلع راضي نحو المستقبل، ودفعته موجة السفر إلى الخارج، المنتشرة بين أوساط الشباب في القرية، للتفكير في بناء مستقبل خارج نطاق فلاحة الأرض. فاتخذ قرارًا بالسفر إلى الأردن، فوجد فيها ما يسر الله به أمورنا ووسع رزقنا، والحمد لله. حيث عمل في فندق حكومي تابع لوزارة السياحة الأردنية في قسم الخدمات. كان يتلقى راتبًا يعادل ألف جنيه، في أيام ما كان الجنيه جنيهًا، وتيسر حاله بفضل الله، حتى الشهر الإجازة كان راتبه مدفوعًا خلاله.

كان هذا العمل بارقة أمل و فاتحة رزق، إذ تزامن مع قدوم ابنتنا الثانية "دعاء". وبعد عام، أرسل إلى أخيه رجب بعد أن دبر بعلاقاته الطيبة وظيفة له في نفس الفندق.

لمدة عشرين سنة غاب عنا راضي، دفعنا ثمنها من الحرمان والشوق والصبر، في سبيل تحقيق أنفسنا والانتصار على آل مصباح في حربهم الجائرة علينا، والتي أججتها الغيرة، وسعّرها الغل والحقد والحسد.

رغم عشقنا لنورا ودعاء، طالما تمنينا أن يتم الله نعمه علينا ويرزقنا بذكر. كنت أراك في مخيلتي منذ أن تزوجت بأبيك، حتى أني سميتك محمدًا.

أنجبتك بعد خمس سنوات من ميلاد دعاء، فأتيت وجه خير وقدم سعد علينا جميعًا.

صرختك الأولى في الدنيا كانت بعد إحلال وتجديد البيت وبنائه بالحديد والإسمنت والتسليح، وزيادة مساحته بعد ما اشترينا نصف القيراط المجاور.

بدأ راضي يفكر بالعودة إلى مصر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بأمريكا، وتأثر قطاع السياحة بشكل كبير بالأحداث التي أعقبت ذلك في منطقة الشرق الأوسط، مما أدى إلى قيام الفندق بتخفيض المرتبات. ومع ارتفاع تكاليف المعيشة في الأردن، لم تعد الغربة مجدية، فاتخذ راضي ورجب قرارهما بالعودة، وقاما بتسوية أوضاعهما وتسوية مستحقاتهما هناك.

بعد عام من عودة أبيها، أنهت نورا دراستها بكلية الصيدلة، وتزوجت من زميل لها يعمل معيدًا في نفس الكلية. وحذت دعاء حذوها، فبعد أربع سنوات تخرجت من كلية الحقوق، وتزوجت من مدرس رياضيات، وأنجبت كلٌّ منهما ولدين وبنتًا.

سترنا الله كما سترنا أنفسنا، واشترينا من الأرض ما عوضنا عن ميراث أبي.

خرجنا من دار محمد مصباح لا نملك شيئًا، ولكن الله جبر بخاطرنا، وفتح علينا بفضله وكرمه من أوسع الأبواب. كان راضي يؤمن بأن بر الوالدين فريضة، ففور عودته، وبفضل قوة إيمانه ونبل أخلاقه،

تصالح مع والده، بل جعله وكيلًا لنورا في عقد قرانها. وأصبح محمد مصباح يزورنا في بيتنا، وكنت أكرمه وأحسن استقباله، برًا بوالد زوجي، وابتغاءً لرضى ربنا، هذا ما نشأت عليه.

وعدتُ مرة أخرى أشارك في احتفال الليلة الكبيرة في بيتهم، وقد رأوا جميعهم كيف بدّل الله حالنا للأفضل، وقلنا لأنفسنا إن كل قدر الله خير، ولا يعلم عبدٌ ماذا في الشدة من فرج ويسر.

نشأ جيل جديد، لا يعرف الكثير من حكايات الماضي، التي سترها الكثير عمدًا تحت جنح الليل وقسوة الأيام. أراد الجميع الخروج من مرارة الظروف وضيق الحال، وأضاء الجيل الثاني منارة نحو المستقبل للجيل الجديد، الذي سيبدأ عصرًا جديدًا يحمل المزيد من الحكايات التي سيحكيها للأحفاد.

استمعت إلى هذه الحكايات من أمي كعب الخير مرات عديدة، في كل مرة تفاصيل مختلفة.

قد تكون حكايات بين مئات الحكايات التي تقصها العجائز في مئات القرى، لكن ما يميزها أنها حكايات أمي

"كعب الخير".

تمت

محمد قنديل

المُحتَوياتٌ

مقدمة ٥
(مسالم طائع) ٩
(محمد مصباح) ٥١
(كعب الخير) ٩٩
(نورا) ١٢٥